إبداعات التفرغ

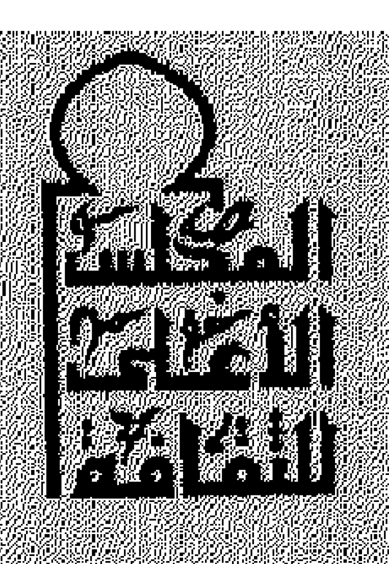
يوم ماتت أمي أحببت الحكايات

مجموعة قصصية



محمود إبراهيم







يوم ماتت أمي
أحببت الحكايات
محمود إبراهيم

الطبعة الأولى - ٢٠١٠

المجلس الأعلى للثقافة
١ شارع الجبلاية ، دار الأوبرا ،
القاهرة
الرقم البريدي ١١٢١١
تليفون : ٢٧٣٥٢٣٩٦
فاكس : ٢٧٣٥٨٠٨٤

تصميم الغلاف والرسوم للفنان
محمود إبراهيم



المجلس الأعلى للثقافة

*** سلسلة إبداعات التفرغ ***

[٥٦]

يوم ماتت أمي أحببت الحكايات

مجموعة قصصية

محمود إبراهيم

المجلس الأعلى للثقافة

إبداعات التفرغ

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

إبراهيم، محمود
يوم ماتت أمي أحببت الحكايات، مجموعة قصصية (سلسلة إبداعات التفرغ ، ٥٦)
تأليف : محمود إبراهيم
القاهرة ، المجلس الأعلى للثقافة، ط ١ ، ٢٠١٠
١٤٨ ص ، ٢٤ سم
١ - القصص العربية
(أ) العنوان ٨١٣

رقم الإيداع ٢٠١٠/١٩٩٨٨
الترقيم الدولي (I.S.B.N 978-977-704-335-9)
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٢٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٢٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St., Opera House, El Gezira, Cairo

Tel. : 27352396 **Fax :** 27358084.

www.scc.gov.eg

المحتويات

أهلا ومرحبا

أهلاً أهلاً أهلاً ..نظرة عزيزة ... الكتاب نوَّر...

إلى قرائى الأعزاء شرفتمونى بقراءة صفحات لم أكن أحسب أن أطلع أحداً عليها يومًا ما ، فقد كتبتها عقب أحداث حقيقية عشتها ، بعض منها كان الأمل فى الحياة الكريمة معه ضعيفًا بعد أن تملكنا اليأس أعقاب نكسة الخامس من يونيو ١٩٦٧ التى كثيراً ما توقعتها.

فى أول أيام عيد الفطر فى عام ١٩٦٦ كنت أجلس على مقهى الفيشاوى. كان الجمع كثيراً يلتفون حول الزعيم عبد الناصر ، قال صديقى فى المقهى: قوم نتفرج .. قوم نشوف .. اقتربت من الموكب أمام الباب الكبير بالإمام الحسينى ، لمحت عينى شابًا ضخمًا قويًا يمشى بجوار الزعيم ، لم تخطئه عيناى فقد عرفته فى مدرسة الخديوية الثانوية وكان شابًا مستفزًا يكتب التقارير فى زملائه ، كانت الثانوية العامة بالنسبة إليه صك عمل دائم يتكسب منه ..

هذا الفاشل يكون من رجال الصف ما قبل الأول!! كان عدد من يكتبون التقارير يتزايد يومًا بعد يوم ، وفى يوم ١٨ مايو ١٩٦٧ كنت أتوجه إلى الزمالك حيث كلية الفنون الجميلة، وقف أتوبيس ٨٠٠ عند كوبرى أبو العلا ما يزيد على الساعتين ورتل الدبابات يتحرك أمام الجمهور وخرجت النسوة تزغرد مثلما كانت تزغرد فى أغنية عبد الحليم حافظ عند عودة الجنود من اليمن... التى تقول : يا حبايب بالسلامة .. رحتو ورجعتولنا بألف سلامة .

غاب أخي في هذه الفتره أربعة عشر شهراً في حرب اليمن لم نعرف خلالها أي خبر عنه ، حتى عاد شخصًا آخر يفكر في الانتحار . فقد كان حبه لعبد الناصر ليس له حدود..

في أثناء امتحان مادة الحفر في ٥ يونيو ١٩٦٧ لم يكن بعيداً عن التصوُّر ما تبثه الإذاعة من بيانات عسكرية كاذبة حول إسقاط طيارات العدو بالعشرات ، إلى أن جاءت أغنية "راجعين بقوة السلاح راجعين نحرر الحمى". هكذا كان الوضع. حاولنا أن نشارك في الدفاع عن الوطن. ذهبنا للتدرب على حمل السلاح ومحاولات عديدة للالتحاق بإحدى المنظمات الفدائية لكي نسترد الأرض والعرض، لكننا لم نتمكن.

قام الإسرائيليون بتمزيق الجيش المصري وارتكبوا مع الأسرى ما لم يرتكبه أعتى مجرمي الحروب منذ بداية الخليقة حتى الآن ، قال صديقي الشاعر عبد الرحمن محسن الذي أُسر في ١٩٦٧ بعد عودته من الأسر : تعرف يا صديقي؟ أنا كتبت قصيدة من بيت واحد وأنا موجود في الأسر .. قلت له : قول لي يا محسن ..

قال : أسوأ ما في أيامنا اللى فاتت الموت على مدفع ساكت

وعشنا أجواء القاهرة حيث يمشي في الشوارع متخلفو الدفاع المدني يطاردون الناس: إنت يا أستاذ يا اللي مولع سيجارة إحنا في حالة حرب ! كأن هدف العدو هو حرمانك من التدخين أو كأنك تدلهم على ميدان باب اللوق.

عندما كنت أمشي مع صديقي حسن عبد الغني ، قلت له : هيا ندخن سيجارة في مدخل هذا البيت . كان بجوار محل لحمة راس وكوارع أمام قصر عابدين، جلسنا على درجة السلم . كان الشارع شبه مظلم وكانت هناك قطة مذعورة تجري اصطدمت بشجرة أمامنا ، قررنا أن ننتقل إلى كلية الفنون الجميلة بالإسكندرية وأن نغادر القاهرة "مدينة الأشباح".

توالت الأيام الصعبة وعدت إلى القاهرة لأتخرج وأذهب لقضاء الخدمة العسكرية، وفي خلال خمس سنوات عشت مترجماً للغة الروسية متنقلاً بين الوحدات العسكرية

للأسلحة المختلفة تخللها طرد الخبراء السوفييت ثم العودة إلى حدود الجبهة. عشت أصعب ظرف في حياتي ، كنت أقاوم التخلف. الموت. الاستمرار في العطاء طول الوقت..

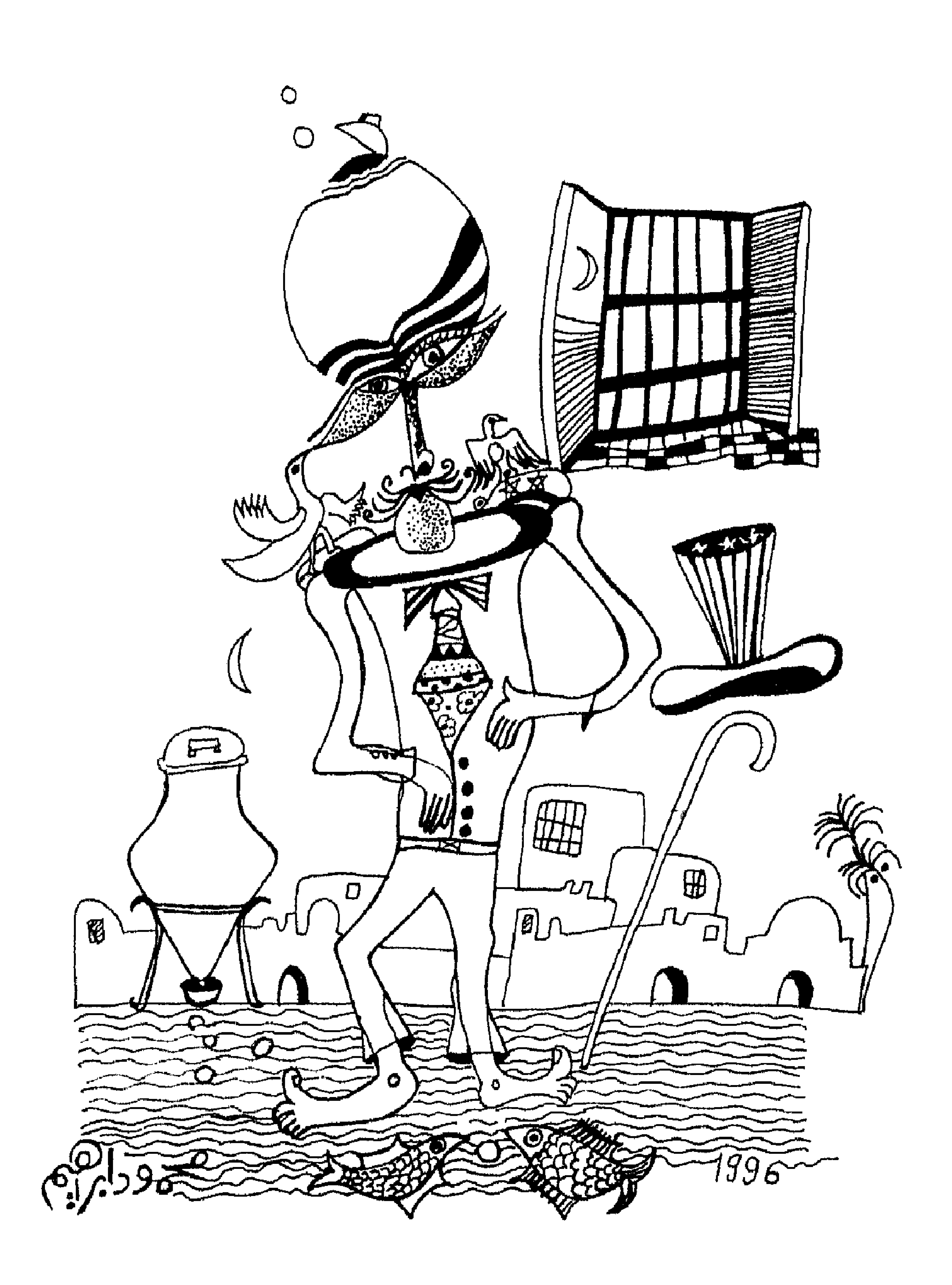
مرت أعوام كثيرة وأنا أعرف أن لعبور أكتوبر ١٩٧٣ وجهاً آخر لم يعرفه أحد.

اخترت بعض الحكايات البسيطة امتزج فيها الماضي بالحاضر والخيال بالحلم .. شجعني أصدقائي لكي أنشر بعضاً من هذه الحكايات.

أنا لم أكن يوماً كاتباً محترفاً .. ولا حتى رساماً محترفاً .. ولا حتى مترجماً محترفاً ، وحتى عندما عملت فترات طويلة في مجال الإخراج... أنا باختصار شديد لم أكن يوماً ما إنساناً محترفاً ..

فاعذرني أيها القارئ العزيز واقبل تجربتي .

محمود إبراهيم ٢٠١٠


1996

الزنزانة.. شتاء ١٩٧٢

إنت يا عسكرى يا اللى واقف هناك.. إنت يا اللى بتبص وراك.. إنت يا أستاذ يا أبو نضًارة.. أدركت بعدما اقترب منى ذو الرتب ونياشين النكسة تتدلى من ياقته.. أجبت : أنا حضرتك.؟ وصمتُّ.. لقد وقفت كلمة حضرتك فى حنجرتى وكدت أسقط من شرقة غير عادية.. حتى إن أحد الواقفين أحضر لى كوزًا من الماء... شربت الماء.. وقلت أفندم؟ بتقصدنى.. ؟!

لو سمحت تعالى ورايا المكتب.. ولماذا؟ هكذا، ونطقت بصوت عالٍ.. أضفت: ليه يا فندم؟ إنت واقع عليك الدور، هتقوم بترحيل ثلاثة من المساجين لسجن اللاهون.

قلت له مستنكرًا . إننى أعمل مترجمًا فلماذا تضعنى فى مشكلة من الممكن أن تؤدى بى إلى السجن فى حالة هرب هؤلاء المساجين ؟ أضاف: هوه الجيش كده، مفيش خبرا، روحوا بلادهم، يبقى انتم هتعملوا إيه ؟ قلت له: نحن فنانون، وإلى جانب اللغات التى لم تعودوا فى حاجة إليها أستطيع أن أعمل رسامًا أو أعمل فى غرف العمليات التى ما زالت تحتوى على كل ما هو روسى من بيانات وسلاح ومعلومات...

التفت بعدما نادى أحد الضباط : هاتهولى وتعالى على المكتب، مش عايز أسمع أى كلمة، أجاب الضابط بعد أن أدى التحية حاضر يا فندم. اتجه ناحيتى هذا الضابط دون نياشين وطلب منى أن لا أثير ضجة فعندهم تعليمات مشددة ضد من كانوا يعملون مع السوفييت. أجبت: وهل كنت أعمل معهم بإرادتى أم هى المهنة التى تعلمتها فى الجيش كى أعمل معهم؟ رد علىَّ : الكلام ده مالوش لزمة وهيعمل لك مشاكل. إنت علشان تحمى نفسك تطلب إن يكون معك سلاح وذخيرة لأن ده الميرى ودى حقوقك،

وكمان... توقف فجأه.. وسألنى: إنت رتبتك إيه؟ أجبته : عريف. رد: من حقك أن يكون معك واحد حراسة آخر برتبة جندى. كان يتحدث معى بتعاطف شديد.. رد علىَّ قبل أن أسأله، أنا كان لى أخ ضابط وفقد فى حرب ١٩٦٧ ولا نعرف عنه شيئًا حتى الآن. اقتربنا من مكتب هذا الضابط ذى النياشين التى حصل عليها فى أثناء وبعد النكسة.. أضاف الضابط مغيراً الموضوع: ماتفرطش فى حقوقك، السلاح والذخيرة.. شكرته كثيراً.. أدى التحية.. تمام يا فندم، توجه ذو النياشين ناحيتى وهو يعطينى الدوسية: دى ملفات المساجين وحضرة الظابط هيعرفك تعمل إيه.. كلمته دون ألقاب : أفندم؟! متسائلاً ومتعجبًا. نعم فى حاجة؟ لا أبداً بس أنا مش هاطلع أرحّل مساجين بدون سلاح وذخيرة، أنا معرفش ممكن يعملوا إيه.

خلاص، واتجه إلى الضابط بلا نياشين: بص يا حضرة الظابط، سلمه رشاش وخزنة فاضية.. قلت مستنكرًا: خزنة فاضية ليه يا فندم؟ هو ده قانونى؟ غضب ولكنه تناول سماعة التليفون.. يا فندم ده عايز ذخيرة.. ثم صمت.. حاضر يا فندم.. اتفضل يا سيدى اديله السلاح والذخيرة، كل شيء يمشى قانونى. ثم حدث نفسه ولكن بصوت مسموع موجهًا إلىّ : أنا ماعرفش كانوا بيدخلوكو الجيش ليه ! التفت وأنا خارج من الباب وعدت خطوتين نحوه دون الضابط: علشان المرة دى هنحارب بجد مش هنجرى.. قلت هذا وأنا أركز على النياشين المدلاة، وقف مذهولاً.. خرجت سريعًا خلف الضابط.. تحدث إلىّ الضابط فى الطريق وقال: إنت هتستلم السلاح والذخيرة والساعة تسعة مساءً تيجى تستلم المساجين.. ممكن تروح دلوقتى وتلبس هدوم تقيلة تحت الأفرول علشان البرد وكمان إن كنت هتشترى سجاير هتاكل أى حاجة انت عايزها اعملها علشان دى سفرية مش سهلة، وربنا معاك وترجع بعد ما تسلمهم.. أسرَّ فى أذنى : أوعى يهربوا منك..

وقفت أمام السلاحليك.. قال الضابط للصول الواقف أمام غرفة السلاحليك: سلمه السلاح والذخيرة حسب الأوامر. أجاب الصول: تمام يا فندم.

إلى هنا ولم تبدأ الحكاية بعد..

تسلمت السلاح والذخيرة، توجهت من ألماظة إلى مدينة نصر. نمت قليلاً وأنا لأول مرة معى رشاش وثلاث خزن. تعجبت وأنا أتفحص ملفات ثلاثة من المساجين المتخصصين فى الهرب منهم واحد آخر مرة هرب فى أثناء ترحيله وثباً من شباك القطار وهو فى طريقة إلى سجن اللاهون، وجهت نظرى إلى الرشاش النائم أمامى على السفرة فى أثناء تناول الطعام... قد تكون هذه آخر مرة أجلس فيها إلى مائدة الطعام... سألتنى زوجتى : إنت سرحان فى إيه؟ قلت لها بعد فترة تردد إننى سأقوم بترحيل ثلاثة من المساجين متخصصين فى الهرب فى أثناء ترحيلهم... وفى حالة هربهم سيضعوننى فى السجن إلى أن يقبضوا عليهم... سألت: وهتعمل إيه؟ وقد ذهب لونها تماماً أجبت دون تردد سأقوم بترحيلهم... خلى بالك من نفسك وربنا معاكى ويقدرك.. حاول تطمنى بأى طريقة .

ارتديت ثياباً ثقيلة تحت الأفرول وتممت على سلاحى وتحركت ناحية الكيلو ٤,٥ حيث تبدأ المهمة.. كنت أعرف جيداً أنهم يحاولون التخلص منا الواحد تلو الآخر بعد محاولاتهم الفاشلة فى تحويلنا ضباط احتياط حيث أعلنّا احتجاج أكثر من مئة وخمسين مترجماً وطالبنا إما أن نعمل فى تخصصنا وإما أن يسرحونا من الخدمة بعد أن أدينا ما يقرب من أربعة أضعاف المدة.

التقيت الضابط دون النياشين الحمراء واستقبلنى بحب وعطف شديدين واتجهنا حيث الصول المسؤول عن المساجين وودعنى.. اتجهت مع الصول عبر الجبل إلى الزنزانة حيث الضوء خافت جداً . اقتربنا من باب الزنزانة. فتحت الزنزانة. الرائحة النتنة دفعتنى إلى الخلف بعض المترات شَدَّنى الضوء الخافت ولون حوائط الزنزانة ورسومات تجريدية أخذت من مسار البول على الحائط خطوطاً ومساحات لونية تذكرنا بالمدارس الفنية الحديثة التى كنا نتصفح كتبها بمكتبة الفن بشارع كريم الدولة أمام الأتيلية (مقر حزب التجمع حالياً) حيث كنا نسمع الموسيقى الكلاسيكية. وأحياناً كنا نلعب الشطرنج على المقهى المجاور.

خرج من الزنزانه ثلاثة من المساجين مختلفو الأحجام لا يغطى أجسادهم سوى خرق ممزقة من عند الكتف والصدر، والجو شديد البرودة. وضعوا الكلابشات فى أيديهم ورافقنى جندى بلا سلاح، قطعنا شوطًا حتى وصلنا إلى باب المعسكر عند الكيلو ٤,٥ ، خرجنا من المعسكر مشينا نحو عشر خطوات. ووقفت اللحظة، توقف زميلى الجندى في المهمة وهو شخص لا أعرفه، أمرته أن يقف إلى جوارى غير بعيد، توجهت بحديثى إلى المساجين بلهجة حادة لا يشوبها أى تردد.. إنتو تجروا دلوقتى.. يلا اهربوا. وكنت قد وضعت الرشاش في وضع الاستعداد .

سألونى وهم مرتجفون من الخوف أكثر من البرد : ماذا تقول؟! وماذا تريد أن تفعل بنا؟! أجبت : أنتم لا تعرفون شيئًا. المطلوب أن أرحلكم لسجن اللاهون وأنتم متخصصون فى الهرب وأنا لا أعرف فى الجيش سوى أن أعمل مترجمًا. وبما أن الروس رحلوا، إذن فعليهم أن يضعونى فى السجن فى انتظار عودتكم من الهرب ثم تتم المحاكمة، واختصارًا لهذا الوقت ولكى لا أعيش حياتى ككلب، اهربوا وسأطلق عليكم الرصاص.. ثلاث خزائن فى ٣٦ طلقة، لن أترك فيكم واحدًا يتأوه أو جريحًا. ستر تاحون. وأقدِّم أنا للمحاكمة.. هيا لا تضيعوا الوقت. أنت تريد أن تقتلنا هكذا..؟ سألونى، أجبت : أنا لا أحب القتل ولكنى مضطر لأنى لا أحب السجن أيضًا أما أنتم فالموت سيريحكم... قاطعونى : أرجوك. قال أحدهم.. نحن سنلتزم حتى نصل إلى وحدتنا. أجبته : نعم! تلتزمون بماذا؟ ومنذ متى؟ أنا سأجعلكم تلتزمون ولكن فى العالم الآخر حيث لا ظلم ولا اضطهاد ولا نكسة.

ظلوا يبكون وأنا أصر على تنفيذ خطتى وأدركوا تمامًا أننى لا أهددهم وأننى أعنى ما أقول.. حاولوا تقبيل حذائى فأبعدتهم وقلت : أنا لا أحب القتل ولكن فى هذا الوضع هو أفضل وضع بالنسبة إلىَّ فأنا فى هذا المكان بعيد عن الجمهور وما زلنا تقريبًا فى الجبل فكيف يكون الوضع ونحن نمشي وسط الناس؟ سيكون هناك ضحايا ليس لهم ذنب فأنا – كما ترون – نظرى على قدى فقرروا إما أن يكون القتل هنا وإما

بعد قليل.. فلنفترض مثلاً أن أحدكم يريد أن يهرش بكوعة أو يمسح أنفه ماذا سيكون الوضع؟ سأطلق عليه الرصاص دون تردد فأنا لا أعلم ما يدور بداخله لكنى أعرف أنه متخصص فى الهرب فيأمرنى عقلى بإطلاق الرصاص إذن فى حالة أن نبدأ الرحلة. فليفكر كل منكم قبل أى تصرف أنه قد يكون آخر تصرف له فى حياته.. وليكن هذا اتفاقًا، تذكرونه حتى بعد أن ترحلوا إلى العالم الآخر لأنى واثق من أنكم لن تكملوا الطريق وستكون النهاية فى أى لحظة لأنكم لم تتعلموا الحذر.

هذه تعليماتى.. فلنبدأ الرحلة إلى العالم الآخر أو إلى سجن اللاهون.

تحركنا حتى مترو المظلة. عندما صعدنا إلى المترو ترك الركاب عربة المترو التى خَلَتْ تمام حتى من الكمسارى الذى انتقل إلى عربة أخرى..

كان شكل المساجين وأجسادهم شبه العارية ورائحتهم تثير الاشمئزاز، أجلستهم على كنبة المترو وجلست أمامهم بمقعدين وحذرتهم : ماحدش ينسى الاتفاق وعلى فكرة أنا شايف إن النهاية هنا داخل عربة المترو ستكون بالنسبة لموقفى فى المحاكمة أقوى.. وعلى هذا عند صدور أى حركة أو لفتة حتى دون قصد فستكون النهاية.

سترتاحون من عذاب البرد والجيش والظلم الذى تحسون به، وسأتحمل أنا المحاكمة وستكون التهم بسيطة فالملفات أمامى مليئة بتاريخكم الإجرامى وهروبكم فى أثناء ترحيلكم ولذلك طلبت كل هذه الذخيرة التى تكفى لقتل مئة شخص.. بكى أحدهم بصوت عالٍ. قلت له : جفف دموعك أو سأقتلك الآن ولتكن الأول..

توقف عن البكاء وتوقف المترو عند محطة رمسيس ونزلنا من المترو متوجهين إلى القطار حيث ركبنا وهم أمامى يجلسون فى حالة من الرعب لم أرها فى حياتى. مددت يدى أخرجت علبه السجائر. وقلت لهم : أنا فقط مسموح لى أن أتحرك كما أريد وأنتم مسموح لكم الآن بالتدخين، وأخرجت بعض السندوتشات وأكلوا ودخنوا، وقلت لهم : أريد أن تتذكروا أجمل لحظاتكم قبل أن تصلوا عبر هذا الرشاش إلى العالم الآخر وأن

تحكوا لعزرائيل عن هذا الرجل الطيب الذى أكرمكم قبل أن يوصلكم إليه.. قال أحدهم : خلاص والله إحنا هنروح اللاهون حتى لو تركتنا لوحدنا دون حراسة حتى لا نؤذيك لأننا أحببناك. أعطيتهم المزيد من السجائر ووعدتهم أن أعطيهم نقوداً عندما نصل إلى سجن اللاهون..

وصل القطار إلى محطة بنى سويف فى الرابعة صباحًا. كان عمال السكة الحديد يتحلقون حول النار طلبًا للدفء قال أحدهم : أنا عايز أعمل زى الناس. قلت له : اعمل وأنت واقف هنا. لا أنا مش عايز وأنا واقف، ما ينفعش، عايز أعمل التقيلة. قلت له : أنا حاسس إن قتل إنسان فى مثل هذا المشهد لم يكن يأتى فى مخيلة أى من مخرجى السينما العالمية. كانا متماسكين فى كلابشات أحدهما واقف والآخر يقضى حاجته وأنا أمسك الرشاش موجهًا ناحيتهما.. أرسلت الجندى الموجود معى ليجلب جردلاً من الماء فأحضره وانتهى هذا الفاصل الفظيع من الرحلة..

بدأ النهار يشق طريقه عبر حوائط الظلام الكثيف التى بُنيت فى الأفق. جلسنا على أحد المقاهى الأشبه بالغرز ننتظر وصول الأتوبيس، لم يكن أتوبيسًا عاديًا ولم يكن متوقعًا؛ إن جميع ركاب الأتوبيس يحملون فراخًا وبطًا وقففًا وطلع أحدهم وهو يحمل معزة.. لم أكن أحسب هذه الحسابات. ماذا أفعل؟

وكانت الإجابة. أمرت السائق بالنزول فنزل مهرولاً مرعوبًا عندما لمح الرشاش فى يدى. خاطبته بلغة آمرة : إنت هتطلع على سجن اللاهون حالاً ومش هتقف فى السكة وأى حد هينزل قبل سجن اللاهون من الأفضل أن يركب أى حاجة تانية وبعدين فضّى لى الكرسيين اللى وراك. إنت فاهم؟ وإلا الثلاثة مساجين دول هيروحوا العالم الآخر بس ممكن ياخدوك معاهم. كلامى واضح؟ أجاب : حاضر يا فندم.. انطلق الأتوبيس بالشروط التى فرضتها على كل الركاب والسائق. قلت للمساجين بصوت منخفض ولكن بلغة أشبه بلغة عزرائيل عندما يقبض الروح: الاتفاق بتاعنا أنا ملتزم بيه.. وصلنا أخيراً إلى محطة سجن اللاهون ونزلنا من الأتوبيس ومشينا فى الجبل حتى قابلنا

عساكر الخدمة. رحبوا بنا واتجهت إلى الصول لكى أسلمهم بعد أن أعطيتهم مبلغاً من المال وعلبًا من السجائر وتركونى وهم يبكون ويطلبون منى أن أوصى عليهم إدارة السجن فوعدتهم بذلك.

بعد أن سلمت الأوراق خرجت من باب مكتب الصول الخشبى وجدتهم وأياديهم مكتفة إلى الخلف ويقفزون كالأرانب المذعورة وسط المساجين وعساكر السجن يضربونهم بالآيش بلا رحمة...

وصلت إلى محطة رمسيس أتأمل النافورة وأحسست وشممت رائحة بول تمثال رمسيس المسكوبة على جيلنا .



عم بسطاوى(*)

أنا الآن جائع.. هكذا تحدث إلى نفسه بصوت مسموع. هنا تستطيع أن تسمع دبة النملة. رد عليه أحدهم الذى كان يجلس بعيداً حيث أضاف: ما رأيك فى أكلة لا تحلم بها فى هذا المكان؟ أجاب: تستطيع هنا أن تحلم بأى شيء إلا الأكل.

كان يود أن يحدثه عن حلم تحرير الأرض. بعد سنوات النكسة وحرب الاستنزاف والعودة إلى الزوجة والأهل والأطفال فهو ما زال فى عامه الثامن والعشرين من العمر، سرحت فى إيه يا أستاذ؟ قاطعه رفيقه فى الوحدة والخندق وهو ينهض واقفًا: ياريت نتحرك بسرعة علشان تقابل شخصية مهمة جدّا فى هذه القرية الصحراوية، أمامنا ٢ كيلو كى نعبر الصحراء حتى نصل إلى القرية وكوخ عم بسطاوى ووجبة من الفول والبيض بالسمن البلدى.. اصطحبه خارج الخندق وخرجا إلى الصحراء والشمس الحارقة. أضاف بعد أن أشعل سيجارة : أكيد هنقدر نشرب شاى.

بعد عشر دقائق من المشى اختفى المعسكر من خلفهما تمامًا. أحس بالخوف للحظة وانقبض صدره عندما وصل إلى سمعه نعيق الغربان. كان الصوت يقترب منهما ولم يكن يستطيع تحديد إن كان الغربان قادمين نحوهما أم هم المتجهون إليهم. أبصرا مجموعة من الغربان تحلق فوق جثة لحمار لم يبق منه إلا الرأس والأرجل والذيل وجزء من عموده الفقرى. قال له رفيقه فى الوحدة والخندق : ضحية جديدة للذئاب وهى لا تفرق بين الإنسان والحمار وأحيانًا تهاجم البيوت. ونصحه أن لا يمشى وحيداً دون سلاح. أسرعا الخطى ناحية القرية مبتعدين عن المشهد ولمحا مجموعة من البيوت المبنية من الطين من بُعْد فى حين اختفى ظل الغربان وصوتهم عن السمع والبصر. كان

يحمل فى إحدى يديه حافظة أوراق بها اسكتشات للرسم وأقلام ورواية ديستويفيسكى "مذلون مهانون"، كان يقضى وقتا طويلاً فى القراءة والرسم والتأمل وأحيانًا تسجيل ما يحسه على الورق، لم يكن عنده مهمة محددة بعد طرد الخبراء السوفييت ونفيه إلى صحراء الأقصر وسط جنود لم يكن قط واحداً منهم على الرغم من أنه لم يجد صعوبة فى أن يتعايش معهم خصوصاً وهو يستطيع أن يفعل الكثير من أجلهم..

فى هذا المكان من الصحراء أعاد بناء وصياغة غرفة العمليات فى صفقة بينه وبين القائد الذى حصل على المركز الأول فى التفتيش على غرف عمليات وحدات الدفاع الجوى وكانت تفاصيل الصفقة أسبوعًا من العمل المتواصل فى بناء الغرفة وتحديث بياناتها وتزويدها بوسائل إيضاح لنماذج طيران العدو التى كان يمتلك كتيبًا به كل المعلومات عنها مرسومة بدقة متناهية وقد ظل يعمل طوال شهرين حتى انتهى منها تماماً وقد ذاع صيته فى الوحدة ونال احترام الجميع حتى إن القائد كافأه بأن بنى له مرسمًا من الطوب النيِّئ وزوده بإضاءة قوية تساعده على العمل وتحول مرسمه هذا إلى مكان يلتقى فيه الكثير من الضباط والجنود يتحاورون معه ويجيب عن أسئلتهم، وقد قام بتثقيف عدد كبير منهم وزودهم بكتب فى الأدب والفن وتحدثوا كثيراً وتناولوا أسباب النكسة بالتحليل.

ها قد وصل إلى التعريشة الملتصقة بكوخ عم بسطاوى من الخلف.. ازيك يا عم بسطاوى؟ قالها رفيقه فى الوحدة والخندق بصوت عالٍ كأنه ينبهه لوصوله أو ربما لأنه قطع بجملته تلك فترة طويلة من الصمت فى أثناء عبورهما الصحراء مروراً بالغريان والفريسة.

رد عم بسطاوى: أهلاً أهلاً إنت مش لوحدك؟ أجابه : معايا صديق عزيز.. قال عم بسطاوى: لقد أحسست بأقدامكما وأدركت ذلك. أهلاً يا أستاذ شرفت. وأضاف : عشر دقايق يكون الأكل جاهز. أدرك الضيف الجديد أن عم بسطاوى كفيف، نادى عم بسطاوى وهو يلتفت ناحية شباك ضيق فى أعلى الحائط: جهز طاسة لاثنين يا مصطفى بس بسرعة وهات مية معاك وعلق على الشاى واقطع لنا عودين نعناع.

بعد قليل جاء مصطفى بإناء مستدير من الفخار فى حجم الزلعة (يسمى بوكلة)، كان الماء الذى شربناه من البوكلة عبر كوز من النحاس يحتوى على زخارف ونقوش جميلة باردًا جدًا بعد أن شرب أخذ اسكتش الرسم وبدأ يرسم بورتيريهًا لعم بسطاوى.



دق جرس المدرسة تلفت فوجدها غير بعيدة عن كوخ عم بسطاوى، نهض عم بسطاوى فجأة عند سماعه جرس المدرسة بينما كنت أرسم عينيه المطفأتين سألته: رايح فين يا عم بسطاوى؟ اقعد أنا بارسمك، انتظر قليلاً حتى أنتهى من عملى. رد

متسائلا : الله هو انت فنان؟! هكذا سأله سريعًا ثم أكمل: أنا مش هاتأخر عليك أنا هجمع الأكل للولاد فى المدرسة، الحصة الجاية بعديها الفسحة. سأله: وانت مالك ومال أكل ولاد المدرسة؟! هى الحكومة مش بتأكلهم؟ رد عليه: لا يا أستاذ دى مدرستى أنا اللى بنيتها وبكرة العيال لما تكبر وتتعلم هيغيروا الحياة اللى احنا عايشينها والبلد الصغيرة دى هتبقى أهم وأشهر بلد فى الدنيا.. سأله: اسمها إيه بلدكم دى يا عم بسطاوى؟ رد عليه: اسمها الزناقطة، وسيبنى الله يخليك علشان ما اتأخرش على الولاد ويادوب على ما تاكلوا أكون رجعت وتكمل اللوحة بتاعتى، يلاً يا مصطفى. قالها عم بسطاوى بصوت عالٍ. جاء مصطفى بطاسة كبيرة عليها طبقان مملوآن بالفول والبيض والسمن البلدى وأحضر الشاى والنعناع وانطلق مع جده يأخذه من ذراعه بعد أن تجمع عدد غير قليل من الأطفال يحملون الطعام.

كانت رائحة الفول بالبيض بالسمن البلدى لا تنسى والعيش الشمسى الساخن أيضًا. كانت هذه أول مره يتذوق فيها العيش الشمسى الذى قرأ عنه فى أحد كتب الاقتصاد وعرف أن هذا الخبز كان عمله عند قدماء المصريين ولذلك صنع بحيث لا يفسد أبدًا وكان قد شاهده أول مره فى المتحف المصرى فى أثناء دراسته فى كلية الفنون الجميلة حيث كان يتردد عليه كثيرًا. فى أثناء تناولهما الطعام شاهد عم بسطاوى فى فناء المدرسة يقوم بتوزيع الطعام على الأولاد يساعده عدد من الأطفال والأمهات.

فرغ من شرب الشاى وتذكر هذه الفترة من حياته مقارنًا بين حياته وحياة أطفال قرية مدرسة الزناقطة عندما كان تلميذًا فى مدرسة سعد زغلول الابتدائية الإعدادية حيث يخرج التلاميذ بعد الحصة الثالثة فى الفسحة الصغيرة حيث تقوم إدارة المدرسة بتوزيع سندوتشات الجبنة والحلاوة، نصف رغيف جبنة ونصف رغيف حلاوة وأحيانًا فول وطعمية وكان دائم الحيرة هل يبدأ بالجبنة أم يبدأ بالحلاوة ونفس الشيء بالنسبة إلى الفول والطعمية، ها قد قرر، قضمة من هذا وقضمة من ذاك. وبعد الحصة الخامسة تأتى الفسحة الكبيرة ويتوجه التلاميذ إلى المطعم ليأخذوا الصوانى ويمروا على طاولات بها أوانٍ ضخمة يتسلمون وجبة غداء كاملة يجلسون إلى الطاولات ذات

المفارش النظيفة الصينية بها خضار + لحم + أرز أو مكرونة + أحد أنواع الفاكهة. بعد فترة المطعم وغسل الأيدى يتجهون إلى الحوش حيث اللعب والمرح والجرى أو جلسات الأصدقاء الجانبية تحت الشجر الموجود بفناء المدرسة. سريعًا ينطلق الجرس وينطلق التلاميذ نحو الفصول حيث تبدأ حصص الرسم أو الموسيقى أو التاريخ والجغرافيا أو حصة للمطالعة أما حصص النحو والحساب والبلاغة والجبر فعادة ما كنا نبدأ بها يومنا الدراسى ونحن فى حالة من النشاط والحيوية.

بعد عشرين سنة من الثورة يقوم عم بسطاوى بجمع الطعام من أهل القرية يعاونه الأطفال والأمهات..

أفاق على تنهيدة من عم بسطاوى الذى جاء وجلس فى نفس المكان وتهيأ الرسم.. هيه أيوه يا أستاذ أنا جاهز، هتكمل صورتى؟ أجابه: وأنا كمان جاهز. رد عليه كأنه قادم من عالم آخر وفى أثناء ما كان يسجل بقلمه الرصاص ملامح عم بسطاوى قرأ علامات الحزن على وجهه، لم يكن يشبه عم مغربى الموديل الذى كان يجلس أمام الطلبة يرسمونه فى أثناء دراسته للفن؛ كان عم مغربى يتقاضى ستة قروش مقابل كل ساعة يجلسها أمامنا وكان له فى كل ساعة عشر دقائق استراحة كان يدخن فى أثنائها ويشرب الشاى. كان الحزن البادى على وجه عم مغربى من نوع مختلف، حزن ناتج عن القهر والفقر الشديدين إلى جانب فقدان الأمل، أما حزن عم بسطاوى فكان نابعًا من عجزه أن يكمل مسيرة الأطفال فى مدرسة الزناقطة وكيف يواجه نظامًا يحرم الفقراء من التعليم الحقيقى. كان الفرق كبيراً؛ كان عم بسطاوى واحداً من الذين بنوا الأهرامات وحفروا قناه السويس أما عم مغربى فواحد من الذين ضاعوا فى المدينة ولم يجدوا عملاً كريماً يسمح لهم بالحياة فتحول إلى موديل يجلس أمامنا ونرسمه بدلاً من التسول.

هيه، تنهد عم بسطاوى وأضاف: أيوه يا أستاذ أخبار الصورة إيه؟طلعت شبهى؟ أنا هاخد رأى مصطفى حفيدى... قاطعه الفنان وسأل عم بسطاوى بفضول شديد: إيه حكاية المدرسة دى يا عم بسطاوى؟ أجابه: دى حكاية مش ممكن تحصل فى أى مكان فى الدنيا. لأ وإيه يقولولك ثورة وتعليم مجانى.. طب شوف يا أستاذ ما دام سألتنى أنا هاحكيلك الحكاية.

قبل الثوره كنت باشتغل بنَّا.. طبعًا كنت باشوف. كانوا ولادنا يمشوا ٣ كيلو فى الصحرا علشان يروحوا المدرسة فى قرية العمارية. القرية دى كل سكانها أغنيا وعندهم جناين فاكهة وبتوصلهم المية الحلوة فى المواسير. بعتنا لحكومة الثورة قلنا لهم يا جماعة عايزين نبى مدرسة هنا فى قرية الزناقطة لولادنا؛ العيال مابيستحملوش يمشوا تلاتة كيلو فى الحر بياخدوا ضربة شمس، كمان أحيانًا بتطلع عليهم الديابة، ردوا علينا وقالولنا حاضر، جت لجنة من الوزارة، طبعًا مجوش الزناقطة إنما جم الأقصر وهناك قرروا أن يبنوا المدرسة فى قرية العمارية برضه! تصور يا أستاذ! - هكذا أضاف - أنا قلت ولادنا لازم يتعلموا هنا فى الزناقطة، جمعت فلوس من أهل البلد وضربت طوب وبنينا ٣ فصول، دلوقتى عندنا ١٢ فصل منهم ٣ فصول للبنات، ومن يومها وانا وأهل البلد بنجمع أكل ونوزعه على العيال، حتى بعد ما نظرى راح منى باحس أن دى الحاجة الوحيدة اللى عايش عشانها وأصوات الولاد وهى بتجرى وتاكل وتتعلم أجمل من أى صورة شفتها فى حياتى والمبنى اللى قدامك ده هو المبنى الحقيقى اللى أنا بنيته.. توقف عم بسطاوى كأنه يتذكر شيئًا: شوف يا أستاذ، فيه أساتذة كتير جم من الأقصر يعلموا ولادنا وكان فيه اتفاق نديهم مرتبات كل شهر، الأساتذة دول بييجوا يدرِّسوا متطوعين وبيبدلوا مع بعض، حتى سواق العربية الأجرة بيروح يجيبهم من على المحطة من غير فلوس. هيه يا أستاذ خلصت صورتى؟ أعطيته اللوحة، رفعها ناحية وجهة وقال ضاحكًا لحفيده إيه رأيك يا مصطفى؟ شبهى مش كده؟ دى شبهك يا جدى طيب اشكر الفنان وقول له ييجى كل يوم ويعلمك الرسم، نفسى يبقى فيه عندنا فنانين إيه رأيك يا أستاذ؟ أنا أوعدك يا عم بسطاوى أنا طول ما أنا هنا ومتنقلتش وحدة تانية هاجى أعلم مصطفى وأصحابه كلهم الرسم. قال مصطفى بحب شديد: أنا باشكرك قوى يا أستاذ. ممكن توقع على الصورة علشان هنبروزها؟ وفى أثناء توقيعى تناثرت كل الأوراق والاسكتشات والرواية وانحنى مصطفى ورفيقى فى الوحدة والخندق وجمع الأوراق. سأل مصطفى: ده كتاب إيه يا أستاذ؟ ده كبير قد المصحف! قلت له: دى رواية كتبها كاتب روسى شهير اسمه ديستويفيسكى واسمها "مذلون مهانون".

سأل عم بسطاوى وهو يطالبنى بمنتهى الجدية والحرص والحرج: ممكن يا أستاذ تبقى تقرأها لى؟

وفى كل مرة كنت أقرأ رسالة من رسائل "مذلون مهانون" لعم بسطاوى يؤكد أن لا أنساه لأكمل فى الغد.

وجاءت الأوامر لكى أعود إلى مركز الرادار والصواريخ حيث ما زال بعض الخبراء موجودين لتدريب الضباط والجنود المصريين على أعمال الصيانة. كنت سعيداً لعودتى إلى عملى ولكنى كنت حزيناً.

ذهبت لأودع عم بسطاوى وقرية الزناقطة ومصطفى. كانت دموع عم بسطاوى تتدحرج من عينيه المطفأتين. سألنى: يعنى مش هنشوفك تانى؟ ومين هيكمل الرواية؟ أعطيت الرواية له وطلبت من زميل لى فى الخندق والوحدة أن يكمل له الرواية ويتركها لمصطفى حتى يكبر، وأضفت: تعرف يا عم بسطاوى، مفيش حد قدنا ولا أكتر مننا مذلون مهانون..

١٩٧٣/٤/١٩

(*) أحداث هذه القصة حقيقية لم أضف إليها إلا أنى تذكرتها ومعها بورتريه لعم بسطاوى.



جلست وحيدًا فاستنطقت المعبد في الدير البحرى...
ودار بينى وبينه هذا الحوار

الثامنة والثلث من يوم الجمعة ١٩/١٢/١٩٩٧

تسأل البيوت ساكنيها: كم استقبلتم بين جدرانى أنفاسًا تتماسك فيها جدرانى؟ كم مرة أزحتم فيها العناكب عن روحى؟ ولماذا تركتم بابى المفتوح دونكم دون حراسة وذبحتم تاريخى دون كياسة؟ أنا البيت الأبدى فلا تتركونى وحيداً فى العراء روحى تبحث فى الصحراء عن سكان جدد يعرفون قيمة البيت والولد والفرق بين حراسة التاريخ وحراسة الجسد. قال البيت قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة: اصنعوا من حجارتى تمثالاً لا يموت واعرفوا أن روحى خارج التابوت تولد كل يوم طفلاً رجلاً حلمًا لا يموت أبداً لن يموت تقول الروح للجسد: عليك أن تحلم كل يوم كى أطير.

بعد أكثر من ثلاثين عامًا على هزيمة ١٩٦٧ الإثنين ٥ يونيو ١٩٦٧.

الإثنين ١٧ نوفمبر ١٩٩٧.

فى ١٨ مايو ٦٧ تحركت أمامى على الكورنيش كتل الدبابات الذاهبة إلى الحرب ولأن الحروب حتى بما فيها المشاجرات بين الأشخاص تكون فى غاية من السرية والتكتم على شكل وزمن المواجهة.. فكانت الضربة قوية ومهينة.

تتحول الطائرات إلى نعاج على الأرض تتلوى فى فراشها كالكابوس وكانت البيانات العسكرية أشبه بأصوات الداعرة حين تتكلم عن الشرف. ورغم كل ذلك خرج الناس كموج البحر ليقفوا بجوار هزيمتهم يريدون الثأر، يريدون الأرض، يعبّرون عن غضب السكارى لحظة الصحوة من الخمر.

ونذهب فى شبابنا طالبين حمل السلاح طلاباً للأرض والعلم.

ورغم قِصَر الفساتين لم نكن نلتفت لأى شىء سوى الرأس، فالقضية فى الرأس وقيمة الإنسان ذكراً أو أنثى فى ما يحمله الرأس.. ولا نحلم بالزوجة والبيت، الحلم الوحيد هو استرداد الأرض.. أما ما عداه فلا يستحق الحلم، وقيمة الإنسان فى حجم حلمه. وتمضى السنوات ويخلع الإنسان عن كاهله ثقل الحمل والحلم ومسؤوليته.. ويبيع فكرة الأرض فى جبهة السوق الحرة وعلى أرصفة الباعة الجائلين، ويرش العطر على الدم حتى يسلم الأنف من الرائحة، ويغطى الجسد الفانى بقماش الرِّدَّة حيث تذهب العين إلى أسفل ونبيع الرأس والقيمة والموقف.

ويحط ستار الدين على الرأس كأنه شبح يفصل بين الروح والجسد ليحطم أى تقدم ويغتصب الوطن والعرض. الرأس. القيمة. ويختبئ سلاح القدر تحت ستائر سوداء ويخترق الإعلام ألف مرَّة تحت أى اسم ويتحدثون عن الدين كأنهم خليفة الله عبر الهواء المرسل ولا يلتفت أحد.. أين المفر؟! وتهرب الثقافة والفكر والرغبة فى معالجة الجرح فى الإثنين ٥ يونيو ٦٧ وندفع من عمرنا ٥ سنين على الجبهة لرد الاعتبار.. محددين اختيارنا الوحيد.. وبعد الحرب.. يكون بطل السلام هو نفسه بطل الحرب ويكون اللون الأسود هو نفسه اللون الأبيض... أين الوعى فى غياب تحديد اللون والهوية؟ ومن أجل احتلال الصحراء الخاوية احتشدنا فماذا نفعل من أجل احتلال الماضى والحاضر داخل وخارج النفس؟ ماذا فعلنا من أجل احتلال الروح وفقدان الأمن؟ قيادات فى كل موقع تنحنى للمال سيد هذا الوقت. وكلما زاد الانحناء علا الكرسى والحاشية وحساب البنك. خنازير المال يحرسونها بالرشاشات فى كل مكان، وكنوز التاريخ تنام فى العراء تبحث عن الدفء ينتهكها كل عابر غليظ القلب فاقد العقل.

كان الإثنين ١٧ نوفمبر ١٩٩٧ هو إعلان عن حجم الكارثة.. فها هم الأمن.. الأمن تعوَّدوا أن يسألوا من يعرفونهم عن هويتهم.. نوع من الاستهبال وسوء التربية.. لا يهم أن تمارس عملك المهم أن تدخل من الباب الذى يحمل رقمك، والمئات يدخلون دون أرقام.. فهذا زمن الرقم لا زمن القيم.

يجلس الأمن فى المكاتب وغرف التكييف. أما العمل فيقذف من النافذة وليس له مكان، إنه العفن والصدأ.. أين كنتم حينما اغتالوا جزءًا من تاريخكم وحسن ضيافتكم؟ لقد فرطتم فى ثروة الوطن.. من قبل لم تحافظوا على رمالكم وأرضكم.. والآن ماذا وأنتم لا تعملون إلا لحراسة البلطجة وخراب الذمم....؟!

اليوم.. ماذا حدث اليوم؟ يشوشنى اليوم ويمنعنى عن الرسم حالة من الكآبة شديدة قدمت إلىَّ من الذاكرة البعيدة القريبة.

– لم يكن عبقريًا هذا.. خازن الشرائط بالمكتبة الأجنبية يتولى مسؤولية رئيس القناة الثانية التى تحتوى مثقفى هذا الماسبيرو الضخم، وقد اختيروا بعناية فائقة.

– لماذا لا نضع الناس فى أماكنهم التى تساعدهم على تطوير أمتهم...؟!

– لماذا يتراجع الفن الحقيقى والجيد أمام البذاءة؟!

رسالة إلى لوحة بدأتها منذ عام ولن تنتهى

عام كامل انتهى منذ البدء فى اللوحة الأسطورة.. لكن اللوحة بشخصياتها ما زالت فى المرحلة الأولى..

نظرات التأمل على وجه جلجامش وعشتروت تتجه بورفيليًا إلى داخل الحدث بعد آلاف السنين من التأقلم واستتباب كرسى العرش، تقرر عشتروت أن تنهى الرحلة فتطير ممتطية إنكدو إله الشر.. وتعبر الأهرامات.. وغربان قابيل، وتلون السحب بألوان الحضارة الفائتة.. وتقفز البومة عن فريسة كانت تحسبها شهية وتحط على رأس هذا البطل الزاهد فى الرحلة.. تدور عشتروت.. تلف.. تقترب إلى العمق والتفاحة للمرة الألف.. ما أجمل النهاية حيث الأبد، والكلمة حيث لا حدود مدد.. والصورة قد تنتهى وقد تبدأ.. فالرسالة ككتاب موصد، والحرف كالكلمة فى السكون وقطع الإصبع كقطع الساعد، والجنة مثل النار نحو الجسد، أما الروح حين تتعذب فلا تمر اللحظة.. وهى مثل الدهر دون العدد.. عام يمر.. والجالس فى اللوحة يسألنى: ما الأمر ؟! والألوان داخل الأنابيب تسأل عن سبب طول الحمل.. والمولود يسأل عن موعد الولادة.. وأقول للمرة الألف: بعد العسر يسر... والدوائر المغلقة تسألنى من ذا الذى سيفتحنى ومن الحياة يمنحنى؟ وقبل أن تأتى الشمعة نهايتها تسألنى؟ النور يقتلنى.. واللوحة تسألنى.. الانتظار يؤرق شخصياتى، أين إطارى؟ وهل تتركنى نصفين؟ قلت للشمعة واللوحة سيأتى زمن لا أغترب فيه، وأمسح العرق المتصبب على بطل اللوحة.. لا يتحمل البومة على الرأس.. وزمن يرقص منتشيًا لا يحس، ولا يعرف الفرق بين لحن اليوم

ولحن الأمس.. والعام يمر ويصير جلجامش فى عامه الأول. يتأخر فى المشى ولا يتأخر عن مشروعه الأخير.. ولن يترك المساحة لعشتروت تلاعبه ببورفيلها وهى تطير...

إما أن تمشى وإما أن تطير...

الثامنة مساء الجمعة ١٩/١٢/١٩٩٧

أحـزان ذبابة

ظل ممسكًا بيده التفاحة.. وضعها مكان القلب تمامًا...

نظراته في اتجاه بعيد، كأنه يحدد من أين أتى.. يجلس هذه الجلسة المحتشمة. كانت تعلم وهي تقف على الطرف الآخر من حرف الكرة الأرضية أنها حبسته داخلها جنينًا أبديًا..

كان يستمتع بحالة التأمل تلك والراحة البادية على محياه..

كان يستحضر النار قبل أن يجلس على عرشه..

وقفت بومة على رأسه ذات صباح. أحس بالراحة الشديدة..

رشقته بنظرة صريحة غير مرتجفة.. بعدها جاءت شاخصة إلى السقف غير فاهمة شيئًا..

.. قفز قرد من شجرة فى وسط إفريقيا.. صرخ صرخة مدوية أعاد إلى الغابة حيويتها. بينما تثاءب أحد الأسود.. بدأ يومه بمداعبة ذبابة تمر من أمام عينيه.. تمتعت عيناه بلون النحاس الباهت.. فرك فى عينيه أحد الزنوج.. أبصره حين كان يداعب ذبابة..

تناول رمحًا بيده وضع قبلة مبللة على نصله. انطلق الرمح عارفًا طريقه إلى قلب الأسد.. أخذ الرمح بين ضلوعه ونام .

نامت الذبابة على إحدى عينيه المغلقتين على لون النحاس.. تلونت الذبابة باللون الأزرق وظلت تطن من الحزن..

ظلت تطن من الحزن..

كُتبت فى ١١/١١/٢٠٠٠



حديث الأشجار والروح

قالت الأشجار: نحن في انتظار العابرين ونعبر من ينتظر

كانت تبحث ذات مساء عن مكان لقدم فوق أسفلت الشوارع..

بعد أن تعبت من المسافات المحدودة داخل عالمها الضيق...

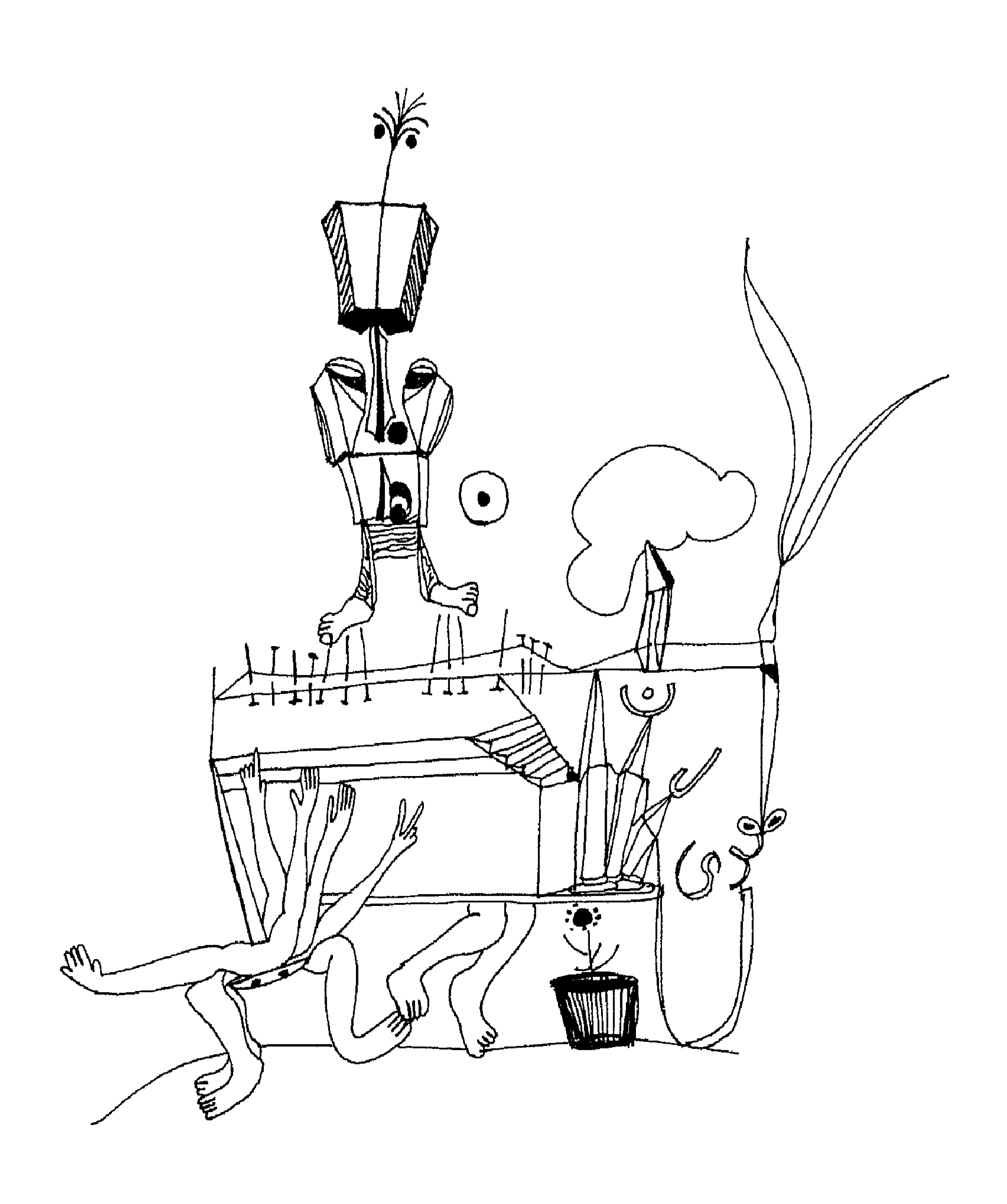
سألت نفسها وهى تمشى بالفعل: إلى أين؟ كانت الإجابة تتحقق بالفعل حين أحست بالهواء يتسلل إليها وانتابها إحساس قوى بأنها تسافر عبر أقدامها. كأنها تجلس إلى نافذة قطار خاص...

قالت الأشجار : نحن فى انتظار العابرين ونعبر من ينتظر.

ماذا؟ هل تتحرك الأشجار وتسقط أوراقها عند من ينتظر ويعبرها العابرون؟ إنها فكرة طيبة. قالت هذا وهى تحس بعض الشىء بأن حقيبتها ثقيلة نوعًا ما..

هل يوجد إنسان غير وحيد فى هذا العالم؟ كانت الإجابة بسيطة دون تسطيح فوحدة الإنسان مرتبطة بالروح.. إذا كانت روحك دائمة التحليق فأنت تحس بسعادة وأنت وحيد.. أما إذا كانت روحك محبوسة فأنت وحيد تعس.. أنت وحيد تعس.

٥ فبراير ٢٠٠١



الصدمة

لم يكن يدرى وهو نائم يتقلب إن كان هذا من لسع الفحم على الفراش أو من قطع الثلج الباردة التى كانت تسبب له الأرق..

عادت روحه فى هذه اللحظة بعد رحلة فى الحلم الذى كان يحس فيه أنه قطعة من السجق المستورد الذى اشتراه عن طريق الخطأ من السوبر ماركت.. عندما كان ينظر بعينين مغلقتين ناحية صوت حذاء يضرب الأرض بإيقاع رتيب منتظم. كانت الأصوات تسيطر عليه فى أثناء النوم عندما تخلصت روحه لترحل بعيداً حتى تترك الجسد بين أسياخ الحديد على الفحم الملتهب.. تذكر فى هذه اللحظة أنه استيقظ على صوت بائع الأنابيب. "ملحوظة" أطل من الشباك، اختفى الصوت، فتح باب الشقة. كان وجهه كبيراً لدرجة أننى حركت رأسى كى أرى المسافة بين أنفه وأذنه الضخمة.. لا أدرى كم مر علىَّ من وقت وأنا أتأمله.

اكتشفت نفسى عائداً إلى الفراش أحاول أن أغطى نفسى بجلد الخروف المشوى.. ظللت أبحث عن السيخ الحديد حتى لا أسقط بين حبات الفحم، أحس أن ظهرى يؤلمنى كثيراً.. إنى اتحسسه فأجده شديد البرودة، أغمض عينى كى أعود إلى حالة الشواء.. عدت إلى الباب إثر صوت الجرس، فتحت الباب، وجدت بائع الأنابيب.. إنه يشبهنى تماماً.. أعود فى المسافة بين الباب والفراش.. أحسست أننى ربما كنت أحملق إلى المرآة، فتحت الباب الحقيقى حيث النخيل والبحيرة.. تجولت ببصرى فى حركة نصف دائرية بين النخل.. وقفت أمام إحداها.. حدثتها.. كانت النخلة تشبهنى..

.. إننى أسمع صوت القطط.. لماذا فى هذا الصباح ؟!

اتجهت إليها ببصرى.. كانت القطط تتقافز فى حيوية بعضها أمام بعض.. كل القطط تتحرك إلا قط واحد كان يتابع الحدث بروحى وشخصيتى.. كانت كل القطط تأكل إلا هو.. تَفَهَّم الموقف.

.. اغتسلت بهواء الصباح البارد. لم أعد أسمع أى أصوات لكن روحى التى عادت إلىَّ فى هذه الفترة القصيرة مَّرت وهى فى طريق عودتها إلى شارع الخان وشارع صيرى.. كان شباك غرفة صباى له حديد أشبه بالقضبان.. ربط أحدهم جملاً ضخماً فى عمود الكهرباء تحت شباك غرفتى.. كان الجمل المقيد صبوراً؛ تحمَّل نظرات المارَّة. أجاب عن الكثير من الأسئلة التى لم يسألها البشر..

ترك صاحب الجمل ولده الصغير بجواره.. أرغى الجمل وأزبد لكنه لم يقترب من الصبى.. ظللت أتابع نظرات الصبى الخائف ونظرات الجمل الزائغة.. كان الجمل يبحث عن شىء فى الفضاء..

.. صرخ الجمل.. جاء صاحبه على صرخته.. فك وثاقه، ضربه بالعصا، ربما جاءت على وجهه وعينه.. بكيت من أجله دون صوت، دون دموع كان بكاءً مُرْعَبًا خائفًا.. لف الجمل نصف دورة كأنه يبعد جانبًا من جسده ووجهه عن صاحبه.. عن العصا.. ضربه الرجل ضربة أخرى على مؤخرته أحس الجمل أنها على قفاه.. التفت ودار دورتين حول صاحبه ثم أخذه من عنقه وجرى به كأنه العاصفة..

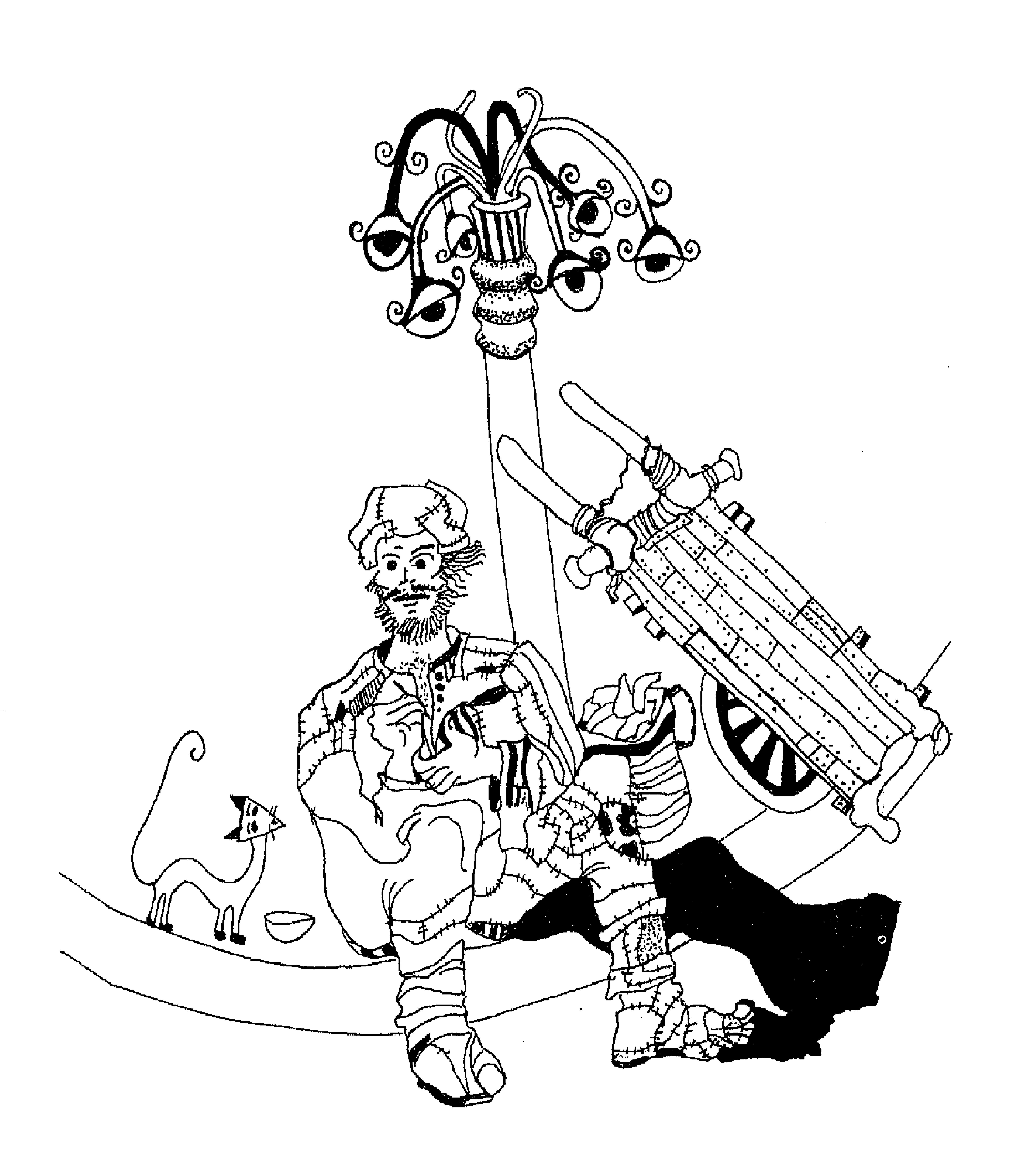
كانت ملامح الجمل فى ذاكرتى.. وكانت الفلكة التى هربت منها يوماً أشبه بسرج الجمل الذى يركَّب عليه... كانت رحلتى فى هذا الصباح خمسين عاماً من الحلم.

.. رجعت إلى حجرتى.. فتحت النافذة للشمس..

بدأت هذه القصة فى ١٩٩٦/١١/١٠

أنهيتها الليلة...

انتهت فى ٢٠٠٣/٢/٢٤



حلقولو

الجمعة، السادسة إلا عشر دقائق بعد الظهر ٢٠٠٣/٥/١٦ .

"شيَّال بالكهربا.. حد رايح جهنم؟ هكذا نادى حلقولو شيال الخان.. لم يكن حلقولو شيالاً تقليديّا.. جسده شديد الضخامة والتناسق يتزين بكل قصاصات الخان من ألوان.. كان يرتدى صديريًا مزركشًا من صنعه. فى أوائل الخمسينيات أو ربما فى منتصفها حينما أدقق النظر فى الذاكرة فأعرف أننى أقطن مع أسرتى فى شارع درب الأشبهى حارة سيدى حمزة نمرة ٥ وكنت فى هذه الفترة قد انتقلت إلى المرحلة الإعدادية.. لكن أتذكر بوضوح جامع السيد البدوى الذى كان بابه الرخام فى نهاية الشارع وكان أمامه دائرة يتوسطها عمود الكهرباء تعلوه فوانيس أربعة جميلة تجعل ليل السيد البدوى نهارًا.

وكانت الشمس قوية وشديدة فقد كنا فى فصل الصيف وكان حلقولو يجلس على هذه الصينية الأسفلتية. وقعت عينى فى البداية على ظله المنسكب تحت رجليه وكانت قطع القماش تدور حول رجليه نسيجًا من صنعه. كانت الخرق تأخذ من الطرقات وأثر جولته فيها فتأخذ أقدامه تصيبها من قصاصات القماش تضع له حذاءً مزركشًا باهى الألوان متناسقًا لا يفك عن قدمه فهو جزء من تكوينه الجسمانى - أليس عملنا جزءًا من تكويننا؟ - ولكننا لم نتمكن من ربطهما معًا كما فعل حلقولو. لماذا لا نلتصق بما نفعل مثلما حقق حلقولو نظريته؟ رفعت عينى عن قدميه الغارقتين فى ظله المنسكب حتى أصعد إلى يديه القويتين المسكتين بالصديرى الذى يضع فيه القصاصات يحوكها الواحدة تلو الأخرى.. لم أستطع أن أصعد فى تلك اللحظة إلى وجهه مباشرة.. كان شيء قوى يشدنى إلى هذه الألوان المتداخلة عبر إبرة ضخمة أشبه بإبرة المنجِّد.

أغمضت عينى.. فلما فتحتها وجدت المنظر كاملاً، ضخم قوى بجوار عربة كارو صغيرة جدًا لا تزيد على ثمانين سنتيمترًا لكن لها سيرًا طويلاً مصنوعًا من قطع قماش الخان أيضًا ينزل على الأرض بجواره كأنه لجام هذا الحصان البشرى الذى يُدْعَى حلقولو.. لم يكن يحس بالحر مثل البشر أو حتى مثل الجياد فهو أقوى من كل ذلك.. إنه يحس بجمال القصاصات التى يختار أجزاءً منها بعناية فائقة كى يكمل الصديرى، ويبدو أنه كان يعمل فى هذا الصديرى طوال فترة الراحة التى غالبًا لا تبدأ إلا عندما يسكن المارَّة من بشر وعربات وجياد حتى يكون الميدان الفسيح خاليًا إلا من حلقولو.. الشمس الآن تقترب من رأسى إلا أنها لا تفزعنى رغم حرارتها، فعندما تتأمل الأشياء تستطيع أن تتحمل سياط الجلاد.. هكذا كان حلقولو يتحمل سياط الخان بكل ما فيه من رواد ولهذا كان دائمًا ما يقول: "شيال بالكهربا حد رايح جهنم؟" .


رسالة الى
الشمس

ض. ج.

مات محمد قبل أن يزرع الشجرة

إما أن تزرع شجرة وإما أن تحفر قبرًا... هكذا تحدث إلى نفسه

عندما كانت كل الأشياء المحيطة به محبطة له.. فماضيك أخذت فيه ضعيف جداً ض.ج.. وحاضرك هو انتظار قرار الموت الذى يملكونه لك.. ربما يعرفون كيف يحتقرون إنجازتك حتى لو كانت أشياء تافهة تخصهم، أما فى ما يخصك فأنت فاشل. فالمقياس هنا كم تساوى ساعات عملك.. هل أصبحت مليونيراً.. لكن لو كنت كذلك لأصبحت كخونة زوجاتهم الذين يملكون المال ليشتروا به حياة أخرى ربما أقل أهمية وربما أكثر أهمية.. ولكنها فى كل الأحوال اختبار آخر..! ماذا تريد أن تقول؟ ماذا يريد الآخر منك؟ التدخل فى حياتك أم الدخول تحت جلدك؟! ما الفرق؟ الدخول فى الحياة يعنى طريقة فى التفكير ومنهجًا.. أما الدخول تحت الجلد فيعنى مشرطًا ودمًا.. نعم.. نعم أريد هذا الثانى.."المشرط والدم".. لماذا؟ ليسهل علىَّ اغتيالك من داخلك.. ولماذا؟ لأنك شخص متمرد لا تريد أن تسمع الكلام ولا يحق لك إلا أن تُذْبح دون يشعر بك أحد.. لهذا اقتربَتْ منه وقالت له فى تودد وحب مزيف: خذنى تحت جلدك.. أعطاها المشرط بينما كانت تقيس المسافة والزمن الكافيين للانتهاء منه بتوقيت عزرائيل..

كان حريصًا على أن لا تفلت منه آهة واحدة يضعف بعدها.. وكان دائمًا يرى المشرط فى يدها.. كان يود أن يعرف التوقيت بالضبط. أخفت المشرط بين فخذيها واستدعته. لم يرغب فى أن يكون متهوراً أمامها إلى هذا الحد.. لذلك أغمض عينيه ومشى خلفها كالأبله.. كان قد بدأ رحلة النوم فى المسافة بين الصالة وغرفة النوم..

حلم بها تمزقه فى أثناء النوم وتفصل رأسه عن جسده، عبر الباب عندما اصطدم بالأكرة.. دخل إلى سريره ، قال لها : أعطينى كوبًا من الماء.. جاءت إليه بالماء: خد الميه يا محمد.. لم يرد.. لم ينهض.. لم يفق من الحلم.. فذهبت روحه ولم تعد لأنها أغلقت الباب فى وجه روحه عندما انفردت به فى المقبرة..

كانت تهزه بقوة بينما كان هو يتجول فى قبره باحثًا عن الشجرة..

قالت له وهى تعلم بحقيقة موته: إن الشجرة ستعيش دونك..

صرخت لتوقظ أهل الحى.. لقد مات محمد قبل أن يزرع الشجرة.

كُتبت فى السادسة والنصف من صباح الجمعة ١٦/٥/٢٠٠٣



محمود ابراهيم ١٥/٢/ ١٩٩٠

الجنيه العائم

لم يكن منذ الصباح العلم بخطة المساء.. لم يكن قادرًا على وضع خطة ليومه بعد أن فقد عمله ذات يوم بسبب حالة العوم التى كان يتأرجح بها صديقه ذات مساء ويتذكر هذا الجنيه العائم الذى يغنى على طريقه عبد الحليم عندما يقول: إن كنت قويًا أنقذنى من هذا اليمّ فأنا لا أعرف فن العوم، لكن.. لكن يبدو أن الغاطسين يخرجون إلى شوارع القاهرة المزدحمة خلف هذا الجنيه العائم بين كتل الحديد الملونة وأكوام العاطلين الذين يركبون كل ما يقع تحت أرجلهم.

تحدث أحد الغاطسين خلف الجنيه العائم إلى نفسه بصوت مسموع بينما كان يأكل سندويتشًا من الفول الناشف ويشم رائحة زيت الطعمية من سندوتش الطعمية الذى تعود أن يترك نصفه دائمًا لعم رجب:

يا عم رجب هات لى واحد شاى تقيل يسيح الفول والطعمية. يستطرد : فى حد على الباب برضه؟ يرد عم رجب: الناس هنا من ٩ الصبح، قلتلهم إنك مشغول بتراجع أوراقهم. يقرب عم رجب حتى يكاد يدس أنفه فى أذن أحد الغاطسين خلف المكاتب.. فى واحد بره شكله بيه. يعتدل فى جلسته حيث كان غاطسًا تحت درج المكتب، مباحث يا عم رجب ولاّ من الرقابة الإدارية؟ يرد عم رجب: لا دا واحد عايز ينقل ابنه من مدرسة لمدرسة فى نفس المحافظة.

الغاطس : طب روح هات لى علبة سجاير كيلوباترا والحساب آخر النهار زى ما أنت عارف، بعد الغلة نبقى نعد ونتسلى.. يدخل عم رجب يده فى جيب جاكتته الصفراء من الداخل ويخرج علبة سجائر مارلبورو، يعطيها للغاطس ويقول له: إيه رأيك خد نضّف صدرك! وده بره الحساب، أصل البيه اللى بره... يقاطعه الغاطس بعد أن يضع

السـاندوتش فى الدرج : هـات لى الشاى ووانت جاىّ دخلّه. رد عم رجب حـاضر يا بيه. قالها بسخرية من البيه... تدخل كباية الشـاى حيث يغطى دخـان السـجـائر المارلبورو فتحـة البـاب. يدخل البـيـه كأنه على مـسـرح شـغـال بالمؤثرات الضـوئيـة والليـزر فـى عز النهار.

يتقدم إلى الموظف. ينهض الموظف. يحييه: اتفضل اعتبره مكتبك. حضرتك عـايز تنقل ابنك ليه ؟ قال له: "من غير ليه" وهو يخرج ولاعة ذهبية يشعل سيجارة ويعطى الغاطس سيجارة يضعها على المكتب أمامه بجوار الولاعة.. دى هدية علشانك ، وده الكارت بتاعى، أول ما تخلص المهمة دى تكلمنى وابعت لى عم رجب. ويخرج من المكتب.

الغـاطس : طيب الشـاى يا فندم.. القـهـوة.. المكتب تحت أمـرك، وزارة التـربيـة والتعليم كلها تحت أمرك يا فندم.. يرد البيه: على فكرة لو عـايز حـاجة مـعينة بس إنت ابعت مع عم رجب وهتوصلك بعد تنفيذ النقل بخمس دقائق.

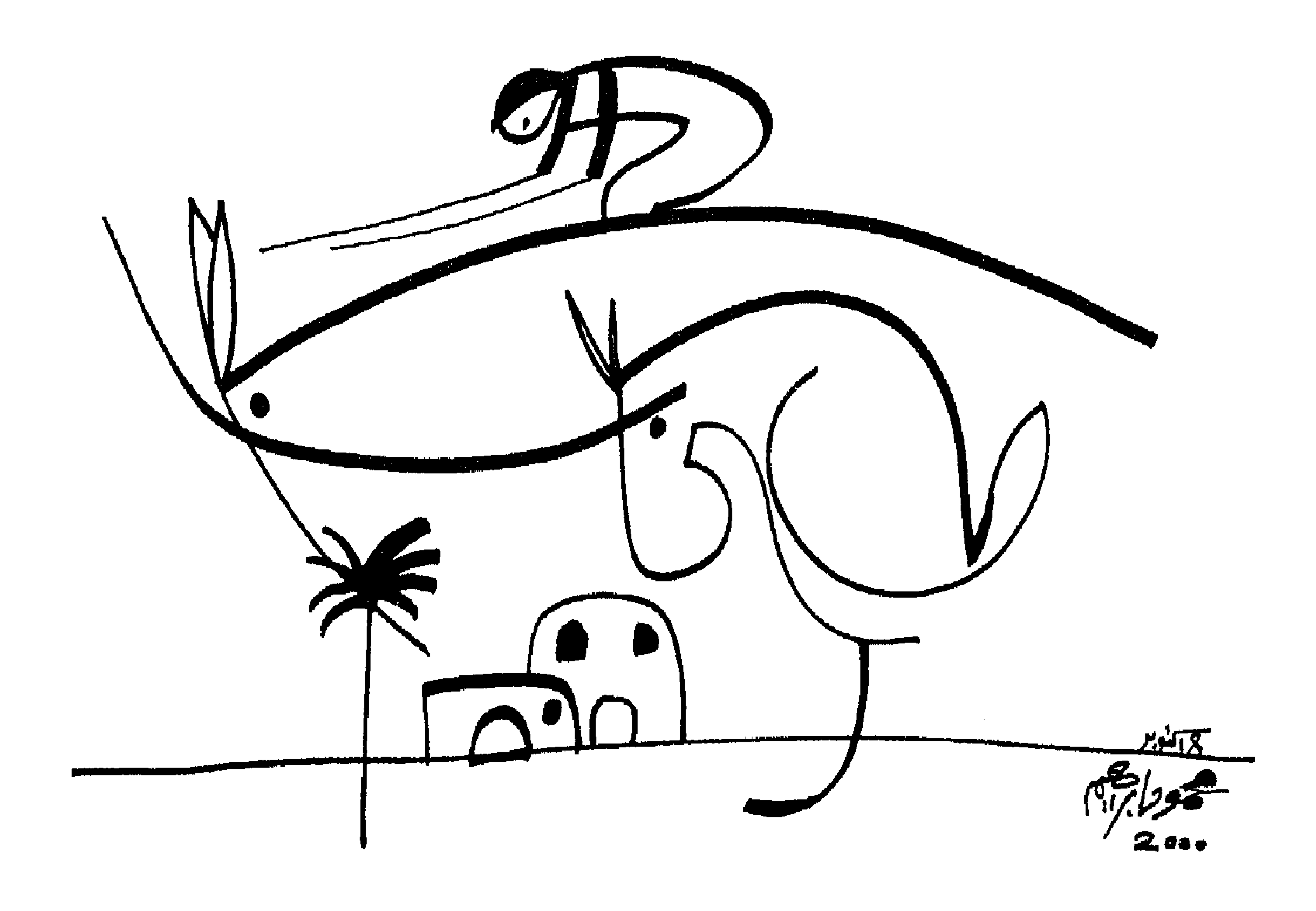
الغاطس : خلاص يا فندم اعتبره اتنقل، وعم رجب هيجيلك، قصدى هيعدى علىّ، حضـرتك النهـارده. يودعه الغـاطس حـتى البـاب ثم يدخل يشرب الشـاى ويفـرك يديه، يتناول الولاعة، يتـأملها : ودى تجليها ييجى بـ ٥٠٠ جنيه أو يمكن ١٠٠٠ ، طيب ده العربون أمـال بقى الحـساب يبـقى كـام؟ نعـتبـر العـربون ده ٢٠٪... ٥٠٪... أنا عـايز حاجة كدا تعملها تَلَتْ أساتك، تليفزيون ٣٠ بوصة علشان الدش اللى جالى امبارح.. خلاص؟ ينادى عم رجب: يا عم رجب يا عم رجب. يدخل عم رجب: أيوه يا سعادة البيه بنفس السـخـرية القـديمة، أفندم. خـد الورق ده خلصـه والكارت ده. يحـاول أن يقـرأ، الكارت مكتوب بالإنجليزى... مين بو ؟ بو لا أبو دومـة الملوانى، يكلم نفسـه: لو انه اسم مش على مسـمى لكن احنا مـالنا... خـلاص يا رجب مـشى الناس اللى بره. يا فندم مـاقدرش أمـشـيـهم لازم على الأقل الخـمس طلبـات دول يخلصـوا علشـان النـاس دى مغرقانى فى خيرها، هما دول زباينى أنا.

طيب يا سى رجب لمّ الطلبـات دى حطهـا على المكتب وروح أنت خلّص وقـول لهم ربع ساعة يكون ورقهم خلص على ما انت تيجى.

رجب : حاضر يا بيه. ويخرج.

بمجرد أن يخرج رجب يدخل أحد المنتظرين بالخارج وهو يصرخ فى وجه الموظف الغاطس: شوف يا بيه، هلاّ هلاّ على الجد والجد هلاّ هلاّ عليه، أنا سايبك بقالى أسبوع وشايف كل حاجة وساكت بس انا قررت النهاردة ماسكتش... أولاً دى لا هى تربية ولا تعليم... يأخذ الولاعة من أمامه ويخرج سكيناً: امضى الورقة دى. ويأخذ علبة السجائر هى الآخرى : على فكرة أنا كان ممكن أجيب كرشك بس قلت انك ما تستاهليش وانا هاخد حقى بإيدى.. اوعى عقلك يزيِّن لك تبلَّغ ولاً حاجة. يهدده بينما يرتعش الغاطس ويبول على نفسه من الخوف... يا حفيظ أنا أروح أتوضا واصلى يمكن الشيطان يمشى.

صباح السبت ٢٠٠٣/٥/١٠


18 أكتوبر
2000

القشة زىّ النخلة

كله متسجل فى الأوردر (أمر العمل) والنجم ما يطلعش من غير ضلمة من الكومبارس، النجمة زى الضلمة عندك يا جمال.

عملتها فيه يا جيمى.. هذا قالت صباح ونحن نجرى داخل العربة خلف النعش.

خالد وعمر زهرتان جميلتان إنهما أجمل ملائكة الأرض.. كانا يخافان أن يتركهما. لكنه ترك كل شىء.. القشة والنخلة والنجمة والظلمة. أوامر العمل التى كان يكتبها كأنها أهم جزء فى حياته... لا، إنها كل حياته فهو لا يعرف سوى النظام. عندما بتر إصبعه فى عملية جراحية بسبب السُّكَّر، تحدث عن جروحه التى تؤلمه، فهو لا يتألم من جراحه بسبب ما تسببه آلامه لكن لا يحب أن يشكو إلى الآخرين آلامه. ماذا سيكون العمل من بعدك...؟ لا أدرى.

كيف ولماذا حدثتنى عن لوحاتى فى المعرض بعدما توجهت إلى هناك؟ لقد كنت تهتم بكل الأشياء، وكنت أريد أن تسجل آخر أمر عمل فى حياتك. لقد فعلت كل شىء عزيزى جمال كمال أننى أفتقدك، لكن روحك لا تفارقنى لحظة واحدة. لقد زاد حبى لك وسنفعل كل ما كنت تود أن تفعله فنقول دائمًا ونحن نفرغ كشوفات الإكسسوار: القشة زى النخلة.

مـاذا حـدث؟ طراخ

طراخ .. سمع صوت باب الحظيرة.. طراخ. لم ينهق الحمار ولم يلتفت إلى صوت البـاب. كـان الهـواء بارداً تَخَلَّص من رائحـة الزريبـة التى تعج بالجـامـوس والبـقـر والخراف. كان يود لو أنه أخذ المعزة السوداء ذات الغرَّة البيضاء فى وجهها معه ولكنها كانت فى سابع نومة تحلم، وحولها الصغار يبحثون عن الدفء بجوار ثديها. أنعش الهواء البارد وجه الحمار. ابتعد عن القرية قليلاً، أحس بالاطمئنان. التفت وراءه للمرة الأولى والأخيرة، كان ضوء القمر يداعب سعف النخيل الذى لمعت أعينه الحمراء، ود لو أنه أخذ بعضًا من البلحات الحمر. فكر للحظة أن يذهب تحت النخلة ربما وجد بعض حبات البلح على الأرض لكن الهواء لفحه لفحة قوية قضت على ما بقى من تردد فى رأسه. انطلق الحمار الأبيض كالشهاب فى تلك الليلة المقمرة عبر التل، وصل إلى حدود الغابة عندما بزغ ضوء النهار. سمع صوتًا ينبعث قرب ذيله التفت للمرة الأولى بعد أن تحرر من القرية والصحراء. وجد أرنبًا صغيراً يقدم له جزرة برتقالية تلمع فى ضوء الشمس كقطعة من الذهب.. اعتبر الحمار أن هذا ميثاق حياة جديدة، أخذ الجزرة وعلقها فى رقبته الطويلة.. ابتعد الأرنب عن أعين الذئاب، كان الأرنب يقفز فرحًا فى الهواء. سمع الحمار عواء الذئب، خاف على الأرنب، اتجه ناحية الصوت، وقف أمام الذئب ونظر إليه فى تحدٍّ...

مـا زال المشـهـد مـجـمـداً بين الذئب والحمـار. والأرنب يراقب الموقف من خلف الشجرة..

تُرَى ماذا حدث؟!

٢٠٠٧/٧/٣٠



ما بعد الموت

جات. ماجتش. شمال يمين.. جاءت لم تجئ..

كان يرددها عندما يبدل الخطوة بين قدمه اليمنى وقدمه اليسرى، بدأها منذ خروجه من المدرسة الابتدائية عندما كان ينتظر عودة أمه من القاهرة حيث كانت تزور أسرتها التى كانت تعيش فى حى الجمالية باتجاه جبل الدرَّاسة فى هذا الكفر الممتد من العطوف حتى شارع المنصورية وهو مقام فوق سور بدر الدين الجمالى، كان يتمنى عودتها بعد غيبة ثلاثة أيام. لم يتعود أن يرى الحياة دونها، كان يضع لنفسه علامات فى نهاية الشارع الكبير وعندما تقترب قدمه اليمنى من العلامة وهو يقول "ماجتش" خاف أن تبتعد قدمه عن العلامة فيغير العلامات. قد تكون الشجرة القادمة إليه من بعيد. وظل يبدل فى العلامات حى وصل إلى شقته فى الطابق الثانى. وقف خلف الباب لعله يسمع صوتها.. كان يعرف أن أمه هى أغلى ما فى الوجود، فالبيت مقترن بوجودها وصوتها الخافت فى أذنيه كل ليلة يساعده على النوم فى حكاياتها المتنوعة المشوقة. وأحياناً تكون الحكاية مملوءة بمشاهد الإثارة والتخويف والتحذير الدائم غير المباشر.

كان يرتعش فى أحضانها وكانت ترقيه وتختم الرقية بأن تقول: اللى نظروك ولا صلوش على النبى لا صلى الله عليهم ولا على والديهم تفٍّ عليهم.. وكنت أروح فى سبات عميق ربما رسمت صوراً كثيرة للغولة التى تعطف على الابنة اليتيمة وعن كوخها فى آخر القرية وربما رسمت قصوراً للأمير الذى يبحث عن محبوبته وسط الفقراء، وعن موائد قمر الزمان وعن القابلة (الداية) التى تبدل الولد بالبنت وعن مصيرها الأسود فى نهاية الحكاية.. كنت أقف عند الباب لأسمع صوتها ولا أريد أن أطرق الباب خوفاً من اكتشافى عدم عودتها. كنت أخاف أن أواجه ما وراء الباب لو لم أجدها.. ونسيت وأنا

أتذكر روحها إن كانت قدمى قد أتت ببشارة قدومها أم لا. هبطت الدَّرَج لأحاول من جديد.. جت ماجتش.. وربما ظللت طالعًا نازلاً على السلم أحاول التنبؤ بلقائها، وربما كنت إلى الآن أحاول أن ألقاها بعد مرور أربعين عامًا على رحيلها. تُرَى هلى ألتقيها؟

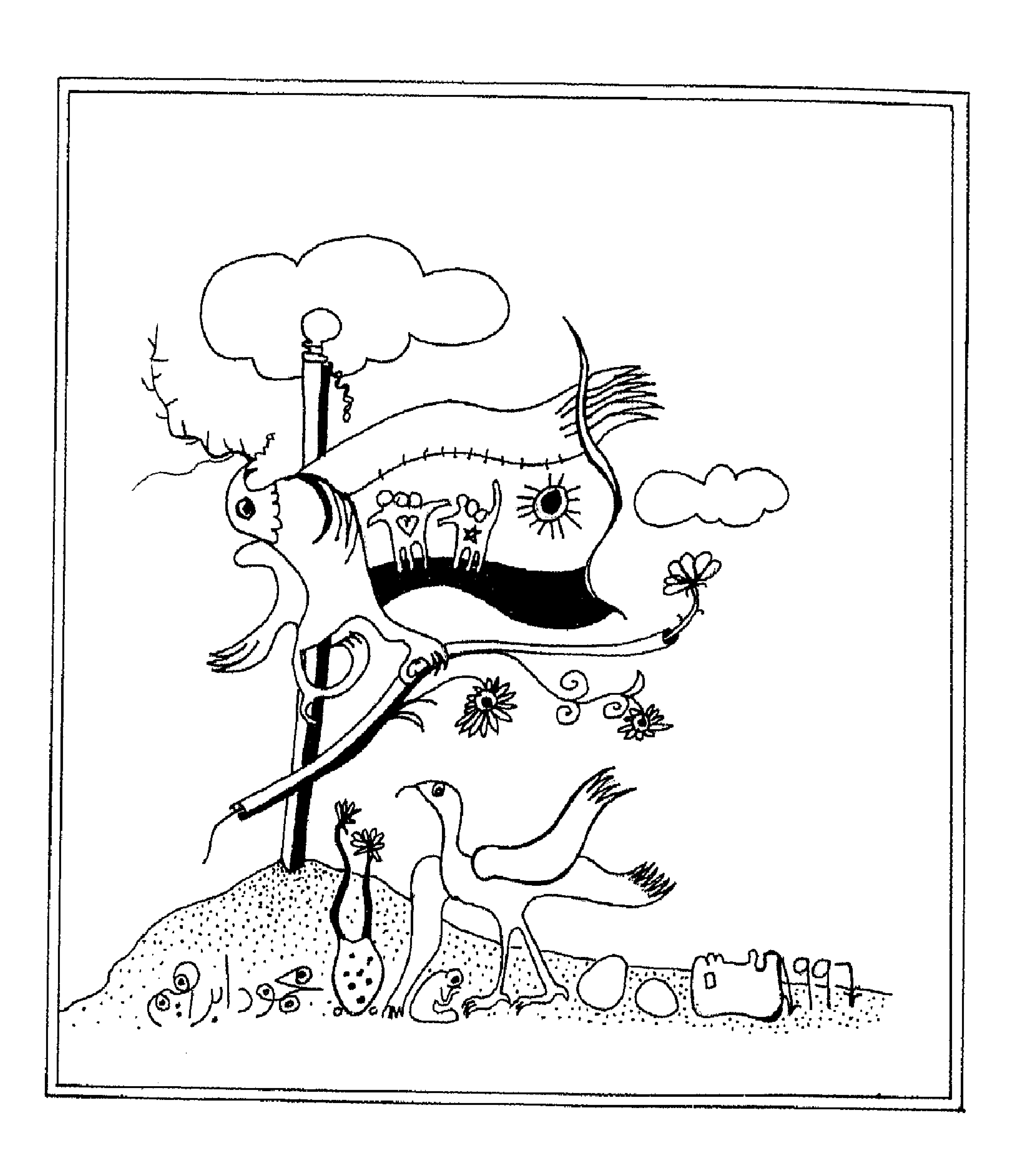
١ فبراير ٢٠١٠



عيدة ماتت يا قمر.. دفنوها تحت الشجر
عَيدة ماتت يا قمر.. دفنوها تحت الشجر

هكذا هتف الصبية الصغار بأصواتهم عندما أخذوا يطاردون القمر الذى ماتت حبيبته عيدة.. قمر قمحى اللون طويل عريض كشخص أسطورى يجرى عندما يسمع صيحات الصغار ينبئونه بموتها.. سمعت معه صيحاتهم. توجهت إلى مكان الصوت. كان الوقت عصراً .. قبل الغروب بقليل.. وقفت على السلم العريض فى نهاية الشارع الذى كان يتمدد من شارع صبرى إلى الخان بمدينة طنطا، لم أكن أعرف الحكاية ولا أعتقد أن أيّا من الصبية يعرفها لكنهم يعرفون أن هذه الكلمات تدفع قمر إلى الجنون. يجرى بعيداً عن الناس وهم يصرخون خلفه أكثر يزيدونه جنوناً. يخلع جلبابه لعل هذا يساعده على الجرى بصورة أسرع.. يتزايد عدد الأطفال ويرن الصوت فى أذنيه: "عيدة ماتت يا قمر"، وقمر يريد أن يصعد إلى السماء لكن لا يستطيع. يتزايد صياح الصغار، يخلع ما تبقى له من ثياب، ابتعد الأطفال لكن صوتهم كان يرن فى روحه كأنه الطنين.. وصل إلى آخر البلدة عارياً تماماً.. تمدد بجوار الشجرة يدفئه صوت عيدة القادم عبر الأرض، يلمس صوتها بجسده العارى يظلله الليل بسواده، لا نراه فهو ملتحم بصوتها وبالشجرة، يطل عليه القمر، يضيء جسده العارى.. تهتف الشجرة باسمه ناحية القمر، ضفائر الشجرة تهبط عليه تغطى عورته، تقترب عيدة نحوه ومعها ضوؤه القمرى آتية به من السماء، تنسكب روحه دموعاً من عينيه تترقرق على جدول من الجنة يصل جلبابه الأبيض عبر نهر دموعه.. قادمة عيدة إليه لتأخذ روحه إلى جانبها وترحل عبر الضوء ودموع النهر وجلبابه الشراع. تطير إلى أعلى ممتطية جلبابه. تأخذ القمر فى أحضانها وتترك الجسد ممدداً تحت الشجرة بلا روح. تنزل قطرات الندى. دموع الشجرة على جسده لترويه وأرويه أنا لكم بعد مرور أكثر من أربعين عاماً عشتها وأنا أحمل فى كل مرة أبكى فيها وجه هذا القمر الذى بعث إلىّ برسالة منها فى هذه الليلة القاتمة علّنى أقدر على الصعود إلى النور حيث عالم لا يموت.
أصوات عيدة ..

كُتبت فى الثانية إلا الربع صباح الأربعاء ٢١/٥/٢٠٠٣


1997

فـى ذكـرى الحـاضـر

ينتظر المرضى بين وقع الشطرنج والبلاط الأسود والأبيض.

١٣٥ على ٨٠.. جهاز الضغط.

حسابات دقيقة.. زمن يُحْسَب بالنبض ودقات القلب .

أفرع الشجر.. الشرايين.. الأوردة.. الأحمر والأزرق صوت حبات المسبحة..

رايح.. جاى.. دن دللن دللن.. "صوت الترومـاى".

هكذا تحدث الترومـاى إلى نفسه قبل أن يدخل المخزن للمرة الأخيرة .. كان يطلب الراحة الأبدية بعيداً عن انتهاكات الركاب ..

كان سائق الترومـاى حزيناً على فراقه.. سأل نفسه.. هل يمكن أن يأتى إلى زيارة صديقه الترومـاى ويضع على عجلة القيادة وردة حمراء..

الآن للمرة الأولى يحس الترومـاى أنه فى الظل.. كثيراً ما كان يفكر فى الظل. لقد ظل طوال حياته العملية يمشى فى الشمس ويتطاير منه الشرر بين الحين والحين عند احتكاك جسده بالكهرباء.. كان الشرر يعبِّر عن نشاطه واحتكاكه الدائم بالحياة.. تُرى ماذا سيحدث له عندما يفصلون سنجته عن جسده؟

هل سيقومون بطقوس الدفن داخل المخزن كما يحدث ؟!

إنه كان يعرف مصيره منذ قدم إليه الترولى باص الذى كان يتمتع بحرية أكثر وله فى رأسه سنجتان ولا تستطيع أن تميزه عن أى أوتوبيس إلا إذا نظرت على ظهره الضخم.. لم يحس الترام بالغيرة من قدومه لكنه كان يعرف أن قضبانه تُرْفَع من تحته شيئًا فشيئًا أو شارعًا فشارعًا.. وكما كان يمشى الترولى باص دون جلبة وفى همس أحيانًا يقتل المارَّة دون أن يبدو عليه أى رد فعل .. رحل فى صمت وصعد بروحه وجسده إلى حيث لا تدركه الأبصار.

تذكر الترومای عندما كان يجلجل بصوته المميز وهو متجه إلى حديقة الحيوان عبر بولاق والزمالك. كان مميزًا جدًا بالنسبة إلى أقرانه من عربات الكارو والحنطور والسوارس...

كان يزغرد وهو مقبل على الدنيا كل صباح، فتحاته كثيرة له سلم يقف عليه الباعة الجائلون يبيعون كل شيء. ولم يكن الكمسارى ينهرهم أو يغضب منهم كان يعرف عندما اقترب من أظلم بقعه فى المخزن أنه ميت لا محالة وتذكر كيف كان العسكر يكيلون له الطعنات بأحذيتهم القوية ذات الحوافر الحديدية.. وقف السائق برهة وأخذ نَفسًا عميقًا ووقف الترام.. لكن محركاته ما زالت تعمل.. نزل إلى أرض المخزن ووقف يتأمل هذا الترام الهرم.. أخرج سيجارة وعلبة الكبريت الهلب.. نظر إلى علبة الكبريت بإمعان، وفرَّت دمعة من عينيه عندما وجد اللهب معلقًا فى سقف المخزن بعيدًا عن علبة الكبريت.. كان اللهب يقف أمام الترام وهو على شكل مشنقة.. اهتز الترام وانقبض صدره عندما أحس أنه محكوم عليه بالإعدام.. كان يتصور أنه ينتهى نهاية طبيعية لكن هذا المشهد لا يحمل سوى معنى الموت شنقًا. مد سنجته إلى أعلى فخرجت عن سلك الكهرباء وبدأ نبضه فى البطء. قال لنفسه : العد التنازلى...

صعد السائق إلى عجلة القيادة.. قبَّلها.. وهبط مرة أخرى. لم تحمله قدماه.. ركع على الأرض.. لم يستطع.. تمدد على الأرض. اتجه ببصره إلى أعلى. كانت السحب تملأ سقف المخزن وكانت الترومايات تتحرك فى السقف بلا صوت.. تحجرت عيناه على المشهد..

شهق الترام ثم لفظ أنفاسه الأخيرة ..

وجاء شخص إلى حيث أجلس وأخذ ذراعى وعلَّق جهاز الضغط وقال : ١٣٥ على ٨٠ . كله مظبوط نموذجى .

لم أكن أسمع كلماته الأخيرة فقد رحت فى غيبوبة كاملة..

كُتبت فى أول يوليو ٢٠٠٣

الثالثة والنصف صباح الثلاثاء



الكابوس الأصفر

يوم الأحد ١٠ رمضان ٢٤ أكتوبر ٢٠٠٤ .

يوم الإثنين ١٠ رمضان ٦ أكتوبر ١٩٧٣ .

ورقه شجر صفراء ذابلة! لكنها جميلة.. كانت تنام بجوار المكتب الذى كان يودِّعنى كل يوم قبل أن أغادره إلى الأبد..

ورقه شجر جافة شفافة كانت تهمس لى دون سائر البشر.

علمت أن هناك أملاً أصفر فالتقطتها. فى الفتره الصفراء من العمر.. كم هى جميلة تلك الورقه الصفراء! هل تحتاج الآن إلى ماء يرويها أم هى تحتاج إلى ضفَّتَى الكراس أم أنها تحتاج إلى مقبرة؟

المرحلة الصفراء. لماذا لا نرسم الآن باللون الأصفر فقط؟

عندما بدأت حياتى العملية كان ذلك داخل اللون الأصفر على الجبهة بين عامَىْ ١٩٦٩ و ١٩٧٤، كانت الحياة والجنود ولون الأسلحة وأرغفة العيش حتى ضحكات الجنود بعد اكتشاف نجاتهم عقب كل غارة جوية إسرائيلية هستيرية صفراء بلون الرمال، لكن الأمل فى العبور إلى الضفة الأخرى من القناة يروى عطش الرغبة فى تحرير الأرض.. خمسة أعوام قضيتها بين التجريب ومحاولة أن يفهم الناس فكرة الحرب وأسبابها.

مقاتلون ينتظرون على باب الخندق، هو بالذات من شاهدته تحت شجرة الخروع، جسد ضخم يجلس فى كسل شديد، الشمس تمر بين أوراق شجرة الخروع العريضة ترسم مساحات من الظل على وجهه. بين أصابعه الضخمة كسرة مرآة.. بالكاد يستطيع أن يرى جزءاً من ذقنه، واليد الأخرى تحمل ملْقَطًا يبحث به عن شعيرات

أفلتت منه فى أثناء الحلاقة.. هذه اليد التى تعوّدت حمل السلاح والفأس تتخندق فى انتظار أوامر الحرب.. تتحرك الشمس على جسده الكسول المختفى داخل الأوفارول الأصفر ولون الشباب الذى لم يكن أخضر فى يوم من الأيام.

تحتفظ الشيخوخة بجمالها لدود الأرض وتحتفظ ورقة الشجر بجمالها بصفحة الكراس وأزيح عن كاهلى الآن الكابوس الأصفر.

ماء.. ماء

بعد خروجه من المتحف المصرى وإحساسه أنه كان فى زيارة دار للأيتام لا أحد يهتم بشأنه، سأل نفسه: تقصد من.. مصر التى فى خاطى وفى فمى؟

أسرع حيث عشوائيات عزبة أبو حشيش وعزبة مكاوى حوارٍ ضيقة قد لا تستطيع أن تمر فى الشارع ومعك صديق، قد تتعثر لو لم تكن حذراً فى قدم أحد الجالسين على بوابات ليس لها أبواب.. إنها أشبه بالجحور البشرية لا يوجد رصيف حتى فى الشارع المؤدِّى إلى شارع الخليج..

مهملات هذا العصر المهمل ماذا يكون شكلها؟ سأل نفسه .. أكوام من النفايات أقرب إلى النفايات الذرية، تأكل الخراف المنطلقة هنا الألياف الصناعية وبقايا كل الأشياء التى يمكن أن تتخيلها، الشارع الضيق مخيف جدّا هذه هى المرة الأولى التى أحس فيها بالخوف والرعب تحت قرص الشمس وفى زحمة من الناس... الناس تبيع بقايا الناس لناس آخرين.. كان المريض يتألم من ضيق الشرايين وانسدادها.. ذهبوا به إلى طبيب عزبة مكاوى، جرّاح وعاطل.. نجّار وتاجر، أشلاء المستشفى ترقدنا، بجوار المريض يافطة كبيرة مكتوب عليها "محافظة القاهرة "إدارة النظافة والتجميل"..

يجلس الخروف أمام المرآة ليحلق رأسه.. ماء.. ماء.. هكذا أشار الخروف إلى

المزين الذى يحلق له ببقايا مرآة مكسورة. ينتفض الخروف عندما لمح حرف المرآة يلمع كالنصل فى أشعة الشمس. اتركنى فى حالى من فضلك سأذهب إلى الزبالة كى آكل وأتوقف عن الماء ماء، يرفع الحلاق الفوطة من تحت ذقن الخروف، يتبول الخروف على مقعد الحلاق.. إذن كان الخروف يريد أن يذهب إلى الحمام لكنه لا يعرف من الكلمات سوى ماء ماء هذه.. جفف الحلاق بول الخروف ونشر الخرقة التى على شكل الفوطة فوق حامل الجلوكوز فى غرفة العمليات الموجودة على الرصيف. تذكر أن شرايينه ما زالت ضيقة. نزل من عربة الإسعاف، جلس إلى المقهى، طلب طاولة وطلب من القهوجى أن يرمى له النرد كى يرى حظه.. شيش بيش.. ترك الطولة ومشى فى الشارع الضيق.. التفّ الشارع حول قدميه، سمع صوت الخروف يقول: ماء ماء. التفت ناحيه الصوت، وجد لوحة إعلانات ممزقة عليها صورة استطاع أن يرى حرف الحاء.. ثم الباء فى المنتصف حرف ناقص. دخل إلى الحلاق وجلس على المقعد، أتى الحلاق بالخرقة التى تشبه الفوطة من فوق حامل الجلوكوز الأشبة بالفواطة، لفها حول رقبته، سمع مرة أخرى "ماء ماء"، التفت قرأ باقى الجملة وهى كلمة ناقصة.. غ د.. جلس أمام المرآة المكسورة لا يرى إلا جزءًا من أنفه وعينه اليمنى، قص الحلاق شاربه بدلاً من أن يقص شعره كانت الفوطة حول رقبته (الخرقة المبللة ببقايا الخروف) تقبض على صدره وروحه، ظن أن هذا بسبب ضيق الشرايين، التفت إلى الحلاق وطلب منه أن يسلكها.. سمع صوت الخروف مرة أخرى يتصاعد: "ما. ما". أين الهمزة ترى؟ هل يفقد الخروف حرفه الثالث أيضًا؟

ماذا سيفعل؟ انطلق خارجًا من عند الحلاق بعد أن تخلص من رائحة الخروف، هبَّ في اتجاه النيل، إنه يريد أن يستحم لعل هذا يفتح شرايينه ويسترد روحه ووعيه الذى فقده.. كان يجرى وسط الشوارع ويصرخ ماء. ماء، خلع ثيابه وهو يجرى فوق كوبرى ٦ أكتوبر بقوة غريبة، كادت تصدمه السيارات لكنه لم يكن ليسمح لنفسه أن يموت في حادثة عارضة. وصل إلى كوبرى قصر النيل، وقف يتأمل الأسود للحظات، سمع صوت الخروف.. "ماء.. ماء" .. تذكر مهمته فى التخلص من ضيق الشرايين، قفز من فوق الكوبرى، سمع صوت الفقاعات الناتجة عن اصطدام جسده بالماء... بوق بوق بوق... بوق بوق بوق.

٢٠٠٧/٣/٢٠



العريس يا امَّاى... جاى العريس

هكذا صرخت بعد أن تجاوزت السبعين عامًا بقليل عندما دخل يشرب من عندها بائع العسل، إنها لا تعرف بالضبط ماذا تريد من بائع العسل لكنها متأكدة منذ أكثر من خمسين عامًا أن شخصًا سيتقدم لطلب يدها .

إنها تنتظر عند فتحة الباب المؤدى إلى إحدى الحارات الضيقة فى عزبة مكاوى الملاصقة لحدائق القبة.. هل تسمع تصفيقها على لحن آتٍ من المذياع؟ خمسة وخمسون عامًا تمر، أوهمها من كانوا يعيشون معها أن العريس قادم.. كانت دائمة الانتظار دون كلل، ودَّعت أهلها واحدًا بعد الآخر حتى أصبحت وحيدة تنتظر العريس القادم.. هل كانت تنتظر أميرًا يحمل سيفًا يمتطى حصانًا أبيض؟

بجوار النافذة كان رفُّ المذياع بجواره صورة ضخمة للملك، عندما سقطت صورة الملك من نافذة الراديو على المقهى... ! لا يمكن لها أن تتزوج هذه الجثة الضخمة التى تظهر فى الميناء من ظهرها بالبدلة البيضاء، إنه أضخم شىء فى الميناء حتى إنه أكبر حجمًا من السفينة التى سيركبها ويبحر بها إلى إيطاليا حيث منفاه الأخير.

المذياع يردد مارشات عسكرية وبيانات، أشياء تدق فى رأسها لم تسمعها من قبل. عاد أبوها من المقهى، دخل من الباب، أمسكته من طرف جلبابه سألته : أين العريس ؟ التفت إليها وقال : جاى.. الملك مشى لكن العريس جاى، جلست تصفق مع البيانات العسكرية التى أطلقها الضباط الذين طردوا الملك.. أظلم الليل وما زالت هى تنتظر عند عتبة الباب، قالت فى نفسها : سيطلع نهار جديد يحمل معه العريس....

غفت مكانها عند عتبة الباب.. نامت لفترة وجيزة.. استيقظت، دخل عليها بائع العسل. صرخت فى وجهه... يا امَّاى العريس جاى. مضت خمسة وخمسون عامًا لم تحس بما فعله الزمن بها، عندما صرخت كانت تقول: "العريش جاى" وتصفق. وضعت يدها على

فمها. توقفت عن التصفيق. قال لها أحد الأولاد المنتشرين فى الحارة: أنت امرأة لك ماضٍ. قالت له: الماضى ده عند أمك على الأقل هى مربربة وحلوة.. وأنا فاتحة الباب على آخره.. يمكن ييجى العريس فى أى يوم. سخر منها الصبى وقال لها بصوت حاد: العريس مات.. العريس مات.

خرجت بملابسها السوداء للحارة الضيقة تصرخ وتولول: العريش مات.. كانت تلطم وجهها بعنف شديد.. تركت بابها مفتوحاً ولم تعد مرة أخرى.

٢٠٠٧/٣/٢٠

بلحة ابن النخلة

على حافة الحديقة التى تشبه الغابة والحقل. كانت تقف نخلة عالية يتدلى من جريدها سباطات البلح الذى يوشك على السقوط من فرط رغبته فى لمسة من يده.. هذا الفلاح الصغير الذى وهب حياته لخدمة النخلة على أطراف الحديقة التى تشبه الغابة والحقل. كان الصبى يطلع النخل لأسباب كثيرة ولكنها مواعيد ثابتة.

فها هو بعد أن تجمع البلح لذيذ الطعم يتجه عبر الحبل الذى يربطه بالنخلة إلى أعلى. لم يكن ينظر إلى أسفل قط حتى وهو على تاج النخلة يُقَلِّمها ويبخُّها بالطلع لكى تنجب نسلاً قويّا، بلحًا لذيذ الطعم.

كان يتمنى دائمًا وهو على هذا الارتفاع الشاهق أن تصعد روحه لكى تلتقى أمه التى تركته مع خمس من أخواته الكبار وهو ما زال فى الخامسة من العمر. إنه يتذكر الآن أول مرة صعد فيها النخلة واحتضنها، كان يحس بدفء النخلة الذى يذكِّره بأيام طفولته الأولى عندما كانت تخصه بالحكايات حتى وصل إلى التاسعة من عمره، وهو يحب أن يطلع النخلة..

ربما كانت أمه تنظر إليه من السماء عبر سعف النخيل، ولحبه الشديد لصعود النخل أطلق عليه إخوته وأصدقاؤه اسم "بلحة". كان بلحة سعيد جدًا بهذه التسمية، كان بلحة يعرف كل شيء عن النخل وكان يأخذ الجريد بعد أن يقلِّم النخلة ينظفه ويسنه بحرف السكين الذى كان يستعمله بعناية شديدة. ظل بلحة يخزن الجريد النظيف بجوار فرن الخبيز الذى أُطفئت فيه النار بعد موت أمه ولم يعد يأكل هذا الخبز الجميل الذى كان له طعم لذيذ ورائحة جميلة. هو الآن يكتفى بأكل البلح ولا يحب الخبز الجاهز من المخبز الذى لم يكن يحتوى على طعم ورائحة خبز أمه .

فى ليلة شتوية باردة خالية من السحب خرج بلحة حيث النخل تتلقف ضوء القمر. كان يتأمل وجه أمِّه القادم عبر قرص القمر. كان البرد قاسيًا على جسد الطفل الصغير بلحة...

اتجه إلى الفرن فى ركن الحديقة الأشبه بالغابة والحقل. وضع الجريد الناشف فى الفرن. أشعل النار. شعر بدفء أمه فنام فى أحضانها، ولم ينتظر طلوع الشمس مرة أخرى عبر سعف النخيل.

كُتبت فى ٢٠٠٨/١٠/٩

الجاموسة ست الدار

استندت إلى الحائط وقالت وهى تزم شفتيها وتنظر بحسرة: البنت كبرت وما ينفعش تسرح بالجاموسة.. وكأنها تجيب عن سؤال يرن بداخلها، أنا أخذتها ورحت السوق.. نادمة على بيعها.. كنت باعمل زبدة وجبنة قريش وأبيع منها لبن كل يوم.. كانت بتعمل لنا كل حاجة.. مصنع للخير، عندما تريد منا شيئًا تنادى نفهم منها ما تريد.. رد رجل عجوز يجلس فى مواجهتها: الثورة كانت بتعمل لنا كل يوم مصنع.. ردت الفلاحة بعدما جلست على الأرض: الله يرحمك يابا... اللى كانوا بيبنوا المصانع دول كانوا بيستعرُّوا م الفلاحين.. وقال إيه لبسوهم بدل شعبية.. الفلاحين طفشوا وراحوا يزرعوا الصحرا فى بلاد الخليج والسعودية. رد العجوز الجالس أمامها متسائلاً: بس كانوا بيعاملوهم كويس؟ ردت الفلاحة:لا والنبى يابا الحاج....

أبويا قال ساعتها أنا آكلها فى بلدى بصل ولا حدش يدوس لى على طرف.. وهو يعنى أبوكى كان عمل إيه..؟ الله يرحمه ماتجوزش عليه إلا الرحمة. ردت الفلاحة بأسى شديد: باع الأرض برخص التراب للخواجات يبنوا عليها فِلَلْ.. ضحكوا عليه الأفندية بتوع البلد اللى بيخدموا عندهم...

لكن أبويا مات فى جرتها.. سأل العجوز: وانتى عندك أرض ؟!

عندنا أرض بس بنكريلها ناس يشتغلوا فيها..

سأل العجوز وهو غاضب: طيب وولادك وجوزك؟ ردت دون تردُّد أنفار عند الخواجات وساعات بيزرعوا صبار... إيه، بيقولولك الصبار الإسرائيلى بيطلع بسرعة إن شالله فى الحجر.

نهض العجوز.. فنهضت أمامه وقبل أن يخرج: طيب والجاموسة تبقى إيه بالنسبة لك..

ردت وقالت بصوت مسموع : الجاموسة.. الجاموسة ست الدار..

فى ٢٠٠٩/٧/١١



وصية الحمار الفصيح

ترك الفلاح باب الحظيرة مفتوحًا، وكان الحمار لا يزال مستيقظًا.. جافاه النوم. سأل نفسه بصوت خفيض: هل أنهق فأصحِّي صاحبي ليغلق الباب؟ التفت الحمار ناحية الباب فلمح ضوء القمر من أول، سأل نفسه: ماذا يكون مصيريُ وحالة الوحدة والقمر المستدير؟ أحس بالقلق.. سمع صوت زئير قادم من بعيد، انكمش في ركن الحظيرة ولم يحرك ساكنًا.

كان يود ساعتها لو أنه جزء من الحائط ثم استدرك: هل الحائط كائن ميت؟ اقترب صوت الزئير، لمح عينيه من بعيد.. شمعتين مضيئتين بلون النار. نظر ناحية القمر وقال لنفسه: ليكن القمر هو آخر ما شاهدته عيناى.. كان يشم رائحة الأسد بينما اختفى صوته تمامًا. زاد توجسه فأدرك أنه هالك لا محالة.. قال الحمار لنفسه: لقد خدمت هذا الفلاح طوال حياتى، لماذا لم يترك كلبه برفقتى ربما كنت ألقنه وصيتى الأخيرة. هرب لون الحمار الأبيض فى ضوء القمر ، زحف لونه الطباشيرى على الحائط. كتب "لا تترك بابك للعدو مفتوحًا". التفت الحمار عكس اتجاه الباب لعله يستطيع أن يرفس عدوه للمرة الأخيرة. لم يكن يملك القدرة على الحركة فقد تَسمَّر فى مكانه. أغمض عينيه على دمعة لم تسقط بعد...

أشرقت الشمس على نباح الكلب كأنه أصيب بالسعار، اقترب الفلاح، وجد فى الحظيرة بركة من الدماء، وجد على الحائط هذه العبارة مكتوبة بلون الحمار الطباشيرى "الباب المترجل يحوش القضا المستعجل".

هكذا قرأها الفلاح الأمى.

كان ضوء الشمس ممددًا فى بركه من الدماء.. بينما كان الفلاح يصرخ ويبكى ويقول : لا تترك بابك مفتوحًا للعدو.. لا تترك بابك مفتوحًا.

فجر السبت ٢٠٠٩/٢/٧





مسْعَدَة

عاشت مسعدة مع زوجها وأولادها عشرين عامًا يخدمون ويحرسون بيت الحاج محمد العجيزى فى واحد من الشوارع الضيقة الخلفية خلف درب الأثر ليس بعيداً عن السيد البدوى. خرجت مبكِّرة كعادتها إلى سوق ستوتة الذى يبعد كثيراً عن البيت. كان أهل السوق يعرفونها جيداً وكانت تستطيع بخمسة قروش أن تشترى الخضار والطماطم، وكانت تمر وهى عائدة على محل الجزار الكبير فى درب الأثر الذى كان يجمع لها فى ثلاجته تنظيف اللحم فيعطيه لها بالمجان كل أسبوع.. فنحن يوم الخميس، واحد من أيام الخميس فى عام ١٩٥٧.. كانت مسعدة سعيدة وهى تحمل قفتها المملوءة بالخضار.. كادت تطير من فوق الأرض رغم حملها الثقيل وكانت تنظر إلى الأرض وهى تجرى تحتها كأنها تركب القطار من سرعتها.. وجدت مسعدة أنها تمشى وسط زحام من البشر لم تتعوده حتى سدت الأجساد عليها الطريق.. نظرت أمامها وجدت رجال الإنقاذ وسط صريخ المستغيثين من أهل الحى.. تخلصت من أحمالها واخترقت الحاجز البشرى، وجدت نفسها أمام كومة هائلة من التراب ورجال الإنقاذ يتفحصون ما وجدوه من جثث.. فغرت مسعدة فمها على آخره وهى تصرخ دون صوت.. ضاع صوتها من المفاجأة.. أصبحت وحيدة.. كان الحاج محمد العجيزى قد ترك البيت منذ أكثر من عام وانتقل هو وأولاده إلى بيت جديد فى شارع البحر الكبير.. أعطت مسعدة ظهرها لكومة التراب.. لم تنزل دموعها.. لكن ظلت عيناها تبرقان منذ هذا الحين كأنهما كأسان من الدموع التى تهتز مكانها فترتعش الصورة أمامها.. وصوتها لم يَعُدْ يخرج مرة أخرى.. على كومة من التراب المرشوش بالماء كل يوم كانت مسعدة تصلِّى.. كان سكان الشارع يعطفون عليها ويقدمون لها الطعام.. بَنَتْ مسعدة

لنفسها كوخًا من الحطام.. شُبَّاكًا من الحديد وسقفًا من عروق الخشب وفرشت حصيرة تنام عليها.. ذات صباح قامت تصلِّى كعادتها ولأول مرة يخرج صوتها: نويت أصلِّى فى ركن لوحدى..

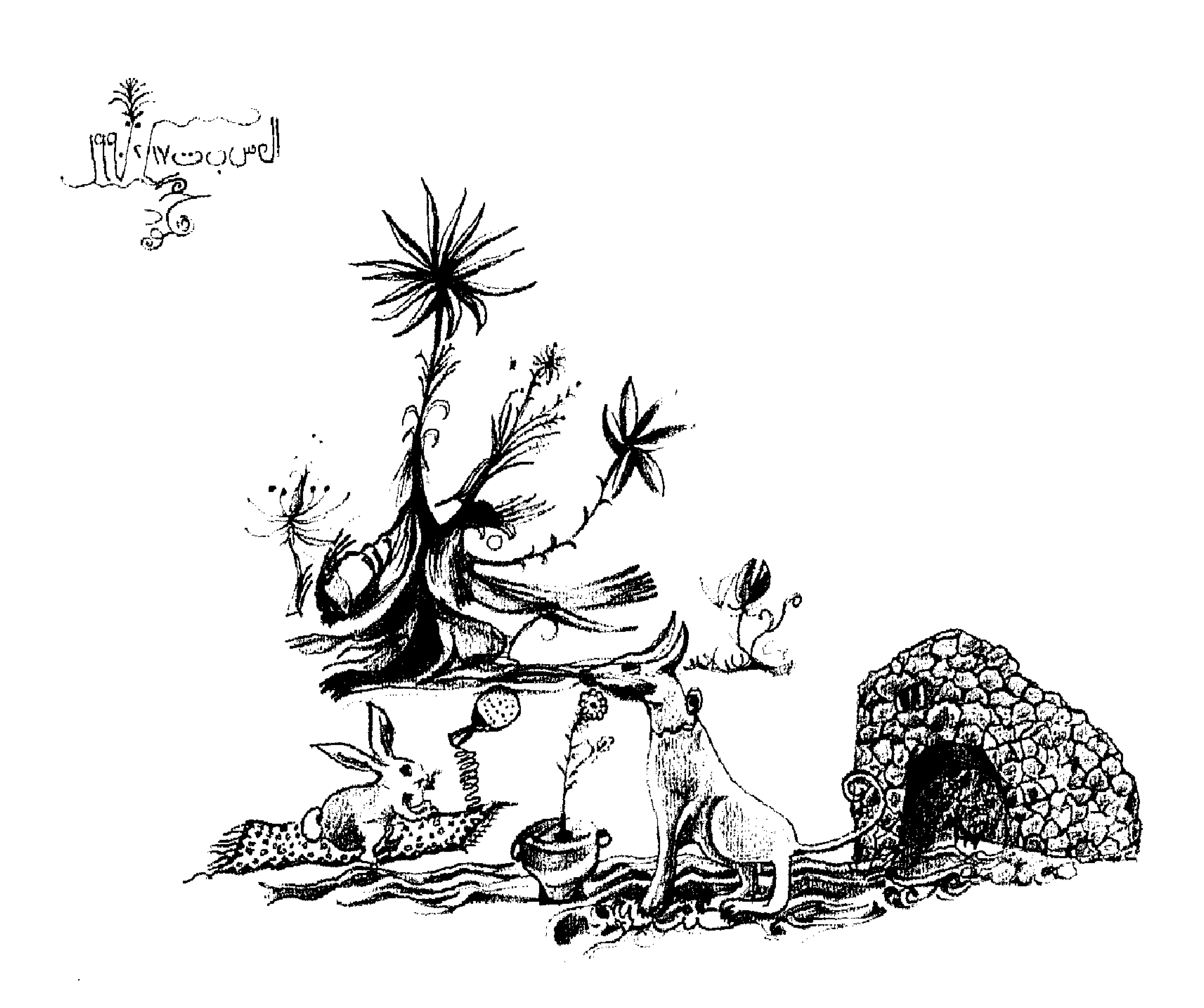
سمعت صوتها.. صرخت مسعدة لأول وآخر مرة: فى ركن لوحدى !!!!! ييييه .

ثم سقطت على الأرض.. أفرغت ما فى عينيها من دموع...

وأغلقت فمها المبتسم ونامت.... فى هدوووء .

كتب فى ٢٠٠٩/٧/١١

أعيدت كتابتها فى ٢٠١٠/١/١٩



الحمار والأرنب وحقل الملوخية

في ليلة قمرية خرج الحمار من القرية بعد أن رفس باب الزريبة وانطلق عبر بيوت أصدقائه من الحمير حتى وصل إلى أطراف القرية، وبجوار آخر بيت وقف يتأمل وحاول أن ينهق لكنه كان مُرْعَبًا من أن يكتشف هروبه أحد. كان هناك شباك يطل منه ضوء خافت....

خلف هذا الشباك كانت ترقد أخته في الرضاعة التي باعها صاحبه في السوق في واحد من أيام الإثنين.

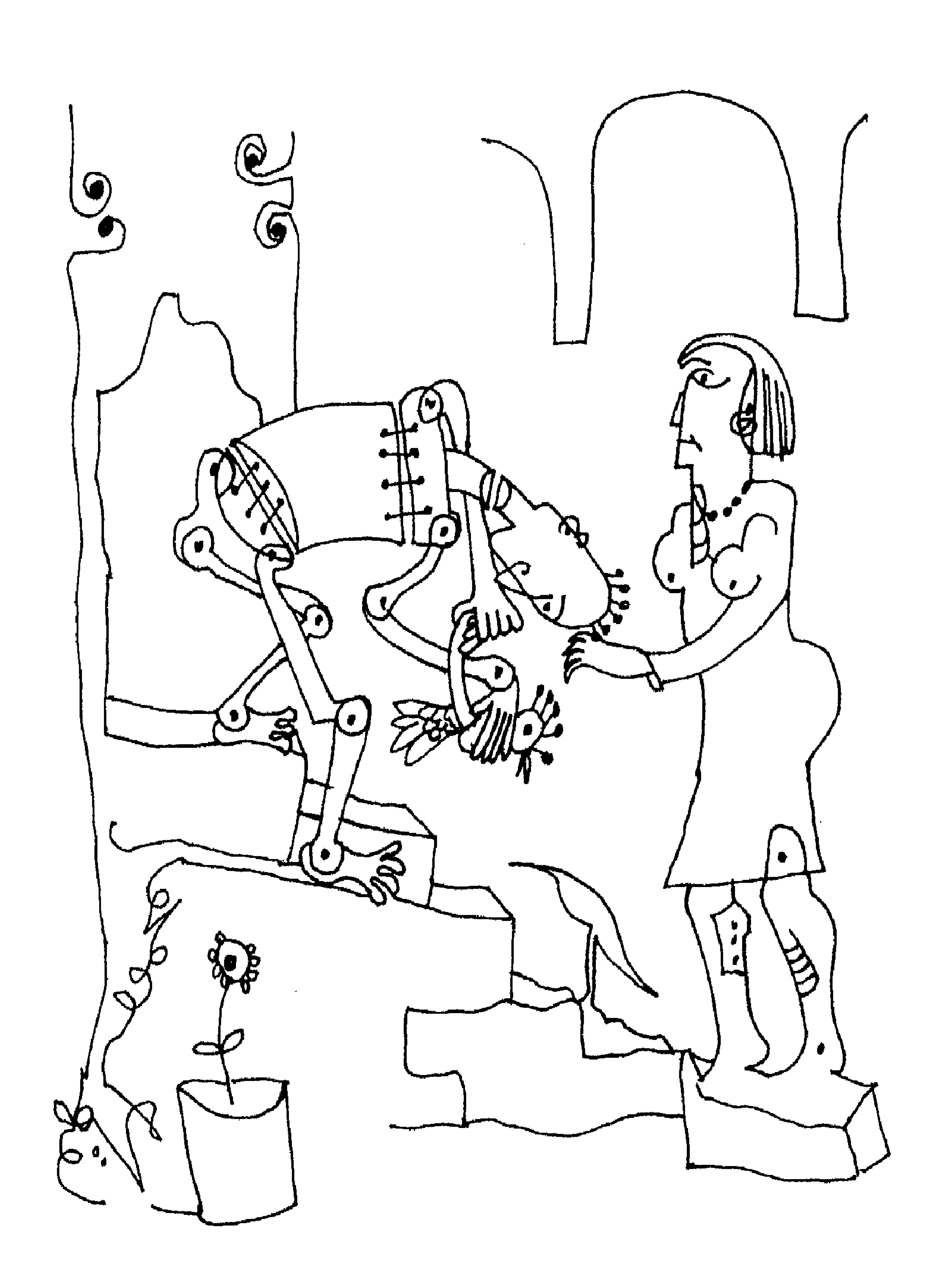
اختنق بالبكاء، لكنه كان قد قرر الرحيل. مسح دموعه بأعواد البرسيم ومضى في طريقه الذي لا يعرفه بخُطًى بطيئة.. أحسَّ أن هناك أعيُنًا ترقبه.. التفت خلفه.. لم يجد أحدًا قرر أن يجري قبل أن يطلع عليه النهار.

في هذه الأثناء كان الأرنب قد خرج خلفه لأنه تربطه به علاقة حميمية لا يعرف الحمار متى بدأت. توقف الحمار فجأة فوجد الأرنب تحت أقدامه. اقترب من أذنه يوشوشه.. قال الحمار: لماذا تجازف بنفسك وأنت لا تعرف الطريق؟ أجاب الأرنب.. إنني أمشي خلفك وأنت تعرف الطريق. سأل الحمار: هذا ليس وقت الهزار. ابتعد عني فأنا ذاهب إلى الغابة.. لم يكترث الأرنب وقال: إذا كنت أنت ذاهبًا إلى الغابة فماذا تتوقع مني؟ دعني أرافقك في الطريق.

قال الحمار لنفسه: ما أجمل أن يكون لك رفيق! ثم اتجه إلى الأرنب وقال: هيا اقفز إلى ظهري فقد أدركت الآن أهمية أن نكون معًا .. فرح الأرنب وقفز إلى ظهر الحمار وانطلقا نحو الغابة... تخلل ضوء الشمس فروع الشجر، وصل إلى عينيه، خاف فنهق.. قفز الأرنب عن ظهره غير مبتعد.. سأله الأرنب: ماذا دهاك يا رفيقي العزيز ؟! رد الحمار: أحسست برغبة في النهيق.. لقد تعبت من الكلام.. طول الطريق وأنت

تحكى عن عدد الأرانب الذى يفوق عدد أهل القرية. كنت أرى فى حديثك نوعًا من الاستهانة بفكرة الشجاعة ومحاولة للتفلسف حول أسباب جبن الأرانب...

أمام الحمار كانت مساحة شاسعة يفترشها اللون الأخضر، نظر إليها ثم نظر إلى الأرنب.. ما كان من الأرنب إلا أنه جرى ناحية العشب الأخضر الذى يذكِّره بحقل الملوخية. ظل يتقلب ويتقلب رافعًا أرجله القصيرة إلى أعلى.. جلس الحمار على جذع شجرة مكسورة. ظل يهرش فى رأسه كأنه يفكر.. صاح فى اتجاه الأرنب: هاء.. هاء هيا نكمل المسير.



الفارس والطَّفَّاشَة

قادمًا من الصحراء اتجه الفارس نحو المدينة.. اقترب من البيوت مترجلاً بجوار حصانه عبر البوابة الكبيرة.. شرب من سبيل أم عباس، التقى رفاقه من الفرسان مع خيولهم. إنه يربط الجواد، نعم هنا فى إصطبل عنتر.. ربت على الحصان فى لمسة عرفان.. أحضر الماء والفول بعد أن قام بتنظيف الحصان من رحلة بعيدة.. ترك الحصان فى الإصطبل. اقترب من البيوت. خرجت طفلة صغيرة وخلفها شيخ عجوز.. جَدُّها.. تقول الطفلة للفارس: تفضل تستطيع هنا أن تتناول غداءك فأنت ضيف وإكرامك واجب علينا.. تنحنح الفارس وفى فناء البيت جلس على المصطبة. أكل وشكر أصحاب البيت وفى لحظة خروجه فاجأه الجنود الفرنسيون.. أخرج سيفه وظل يحارب ويقاتل حتى مات. تناولت الطفلة إصبع الطباشير. كتبت على السبيل. يرقد هنا الفارس الذى قتل أعدائى... أُسقِطَ الملك وصعد من أسقطوه على مواسير المجارى بالحبل.. دخل من الشباك، أخرج طفاشة وفتح كل الدواليب والخزائن وظل يسرق كل شىء. عندما كثرت المسروقات وثقلت عليه كان أثقلها كتاب كبير كُتِبَ عليه "وصف مصر"، سقط اللص عن المواسير حينما صرخ السكان، ومات..

جاء صاحب الدار وكتب بدمه "لقد مات هنا من سرقنى"...

السبت ٢ يناير ٢٠١٠



واحترقت الشجرة قبل بدء التصوير

وقفت الشجرة فى أثناء سيرى تتأمل سلة المهملات المعلقة أسفلها ترقب المارة الذين يرمون فضلاتهم تارة فيها وتارة أخرى بعيداً عنها. ألقى أحدهم عقب سيجارة مشتعلاً نسى أن يطفئه فى السلة أسفلها فأمسكت فيها النار. لم يلتفت أحد إليها.. قررت أن تجرى وهى محترقة حتى تصل إلى النهر. كانت تجرى وسط زحام الناس ولا أحد يلتفت. اقتربت من بوابة ماسبيرو. صعدت حيث مكتب وزير الإعلام، وقفت أمامه بعد أن أصبحت عموداً من الدخان. كانت تدخن وما زالت.. سألته: أين المطافئ؟ أين المطافئ؟ لم تسمع أى إجابة.. سألته: أين الكاميرات؟ أريد أن أسجل لحظاتى الأخيرة! لم يستمع إليها. قفزت من مكتبه إلى النيل.. طفا اسمها فوق الماء واختفى، ذهبت الكاميرا حيث التفَّ كل الناس لمشاهدة موتها.. طفا اسمها مرة أخرى حيث دفعت بدخانها الأسود على صفحة النيل... شجرة فكرت فى الانتحار فاحترقت.

السبت ٢ يناير ٢٠١٠





يوم ماتت أمى أحببت الحكايات

كان يعرف أن ما حصل عليه من خبرات فى الحياة والعمل.. يجعل الساعات القادمة أيامًا والأيام شهورًا وشهرًا واحدًا يساوى ثلاثين عامًا.. وبهذا لم تدب الشيخوخة بأرجلها القاسية على روحه... ماذا تحب أن تعمل؟ هكذا سأل نفسه وهو يدخن، وما الإجابة؟ السؤال والإجابة يأتيان إلى ذهنه بنفس القوة... ماذا تفعل بالقوة؟ فى الصباح أفتح علبة الصلصة وفى المساء أحاول أن أجيب عن أسئلة أحفادى المتفاوتة طبقًا لخبرة أعمارهم وثقافتهم المباشرة وفى الليل أسأل نفسى ماذا يجب علىّ أن أفعل بالتحديد. محاولات الفعل! أطالع ما أكتب فأكتشف أن الفرق بين اليوم والأمس بعيد...

أين الصورة؟ سأل نفسه مرة أخرى.. جلسا أمام الشباك فى ٨١ ش أحمد سعيد عام ١٩٦٥.. كانا ينظران إلى الكاميرا بلا تأمل.. أو قل بالأحرى كانا يتصوران.. اليد اليمنى على اليد اليسرى والنظرة تتجاوز فى هذه اللحظة موضع الكاميرا. حيث يصلان إلى القلب مباشرة.. هل تستطيع أن تستحضر صوتهما؟ لا أتذكر صوت أبى لكنى تذكرت فى أثناء الكتابة.. عندما كان ينادى.. يا محمود.. مرّة... ومرّة... ومرّة.. سمعت صوت الجريدة وهو يقلبها فى ذاكرتى.. كانت أمى تحكى لى الحكايات وهى تهرش فى ظهرى بحنان منقطع النظير.... ما هذه الأمومة؟ يبدو أنها كانت توصّل الحكاية عبر مسامٍ جسدى لا عبر أذنى. كانت تدافع وتدفع بالشر الموجود فى الحكاية بعيدًا... حيث الخيال البعيد جدًا عن يديها....

وكانت حكايتها الأخيرة يوم السبت من فبراير ١٩٧١.. ودعتنى حيث ذهبت إلى الجبهة.. خلى بالك من نفسك.. قبّلتنى وهى نائمة.. كانت رائحتها عذبة ورائقة مثل الماء... عدت يوم الثلاثاء.. دون موعد.. كان البيت خاويًا.. قالت لى إحدى الجيران: أمك

فى المستشفى.. توجهت سريعًا.. إلى هناك.. كانت قد أصيبت بالشلل بعد أن ودعتنى.. لم تتحدث بعدها إلى أحد ولم تتنبه. دخلت إلى غرفتها. اتجهَتْ ببصرها إلىَّ. مدت ذراعها تحوطنى.. وبصوت متعثر نطقت باسمى.... كان هذا هو اللقاء الأخير.... سألت نفسى ماذا قدمت لها. عرفت أننى أحببت حكاية الحكايات بسببها.. وبصوتها الذى أتذكره الآن... الآن سأنام وهى ملء عينى.. فلا يوجد أجمل من صورتها فى عينى... تصبحى على خير يا أمَّه.

فجر ٢٠١٠/١/٢٩



المولد

توجه إلى ساحة المولد بعد عبور نفق ستوتة كعادته أيام مولد السيد البدوى. اصطحب معه أحد أصدقائه. اتجه إلى حيث سيرك عاكف. كان يبهره ما يقدمه السيرك من عروض. ظل يتجول بين راكب الدراجة البخارية الذى كان يقدم عرضًا أمام خيمته الأسطوانية التى كان يدور داخلها بدراجته البخارية ويقف أحدهم يعلن عن العرض: بريللو بريللو.. البطل الإيطالى الذى يمشى على الحائط بدراجته ... بينما كان أمام خيمة العرض بريللو يقوم بأداء بعض الحركات على الدراجة البخارية التى كانت تجرى فى مكانها على مواسير من الحديد.. بقرشين صاغ.. بقرشين صاغ بس.. البطل الإيطالى... كنت أكتفى بأن أراه فى الخارج أمام الخيمة يستعرض بعض الحركات على الدراجة البخارية التى تدور فى مكانها وكنت أوفر النقود لدخول سيرك عاكف لكى أرى التى تمشى على السلك والفارسة التى كانت تقوم ببعض الحركات الصعبة مع الخيول وفقرات الغناء تَقْلِبُ أغانى الإذاعة بأغانٍ أخرى ترتبط بحياة الناس وكان هناك غنوة تقول: اسأل عليَّهْ.. من دمعه رايحة ودمعة جايه.. أسأل عليه... وكانت الغنوة التى يؤديها المقلدون فى السيرك: شايف صينية. ما الفرن رايحة م الفرن جاية... شايف صينية.. ويبدو أن الفرق بين أغنية الإذاعة وأغنية السيرك هو الفرق بين الإعلام الرسمى والحكومة.. ورغبات الناس والتعبير عن حرمانهم. تقول الأغنية.. حبيبى أنت الوحيد.

وتقلب ...

صينية حلوة.. لكن بعيد.

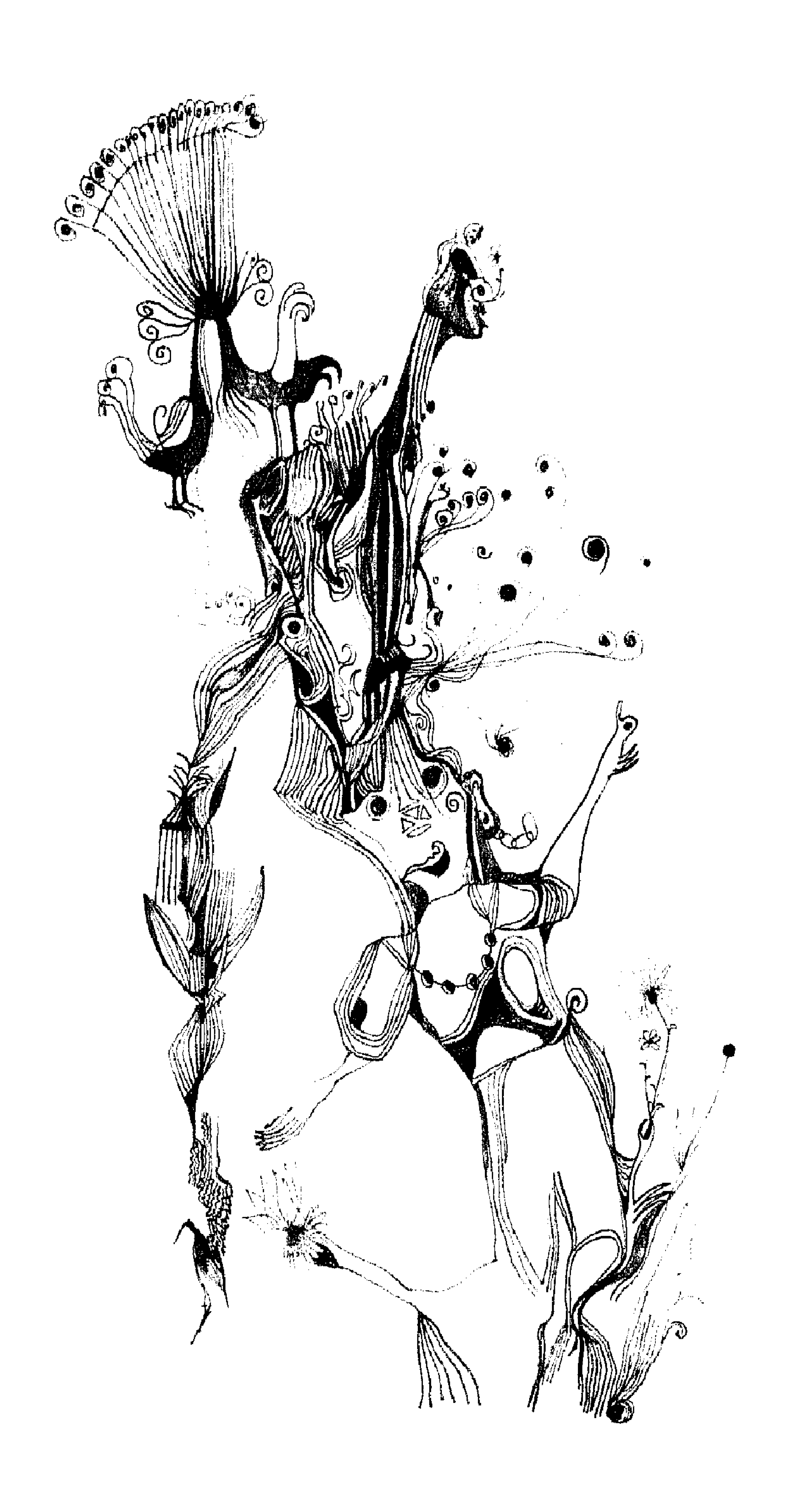
كل اما شوفها الجوع يزيد..

لا ليًا صاحب ولا ليا حد...

يخطفنى منها ويقول لى هوً..

ويستمر قلب الكلمات لتعبر عن حالة الجوع والاحتياج.. كان فى السيرك المتعة والمرح وإيقاظ العقل والتعامل مع الحس النقدى ودور الفن... ورغم إعجابى الشديد بالليلة الكبيرة لصلاح جاهين.. فإن إعجابى بمن كانوا يقلبون الأغانى أكثر.. وإن الفانتازيا الموجودة فى المولد ليست فانتازيا بالمفهوم الغربى.. ولكنها.. حالة المولد.. حيث يولد الفن مع الذِّكر والطقس الديني.. وهذا ما قدمه صلاح جاهين فى بداية الليلة الكبيرة.. حيث بدأ: قبة سيدنا الولى دول نوروها . إلخ، وقفت مترددًا قليلاً بين أن أتجه إلى سيرك عاكف أو إلى مدرب الأسود.. محمد الحلو.. وجدتنى داخل سيرك عاكف.. أراقب نعيمة عاكف لاعبة السيرك التى تقوم بالمشى والرقص على السلك وتقوم أيضًا باستعراض الفارسة مع الخيول.. المولد.. فن مصرى حقيقى..

الإثنين أول فبراير ٢٠١٠ السادسة صباحًا..



جو آوت Go out

اخرج بره ..

هكذا تحدثت. من هي ؟ صوت نسائي قاطع طارد يأمرك بأن تخرج من باب الأسانسير (المصعد).

اخرج... هذا ما قاله المصعد عندما توقف في الدور السادس بالمبنى الجديد الملحق.. تمامًا كما حدث في الحياة العملية !!

لا.. لا مكان لك في المصعد ولا خارجه.

ظلَّت تسيطر عليه فكرة خروج الروح.. ليتحول الجسد إلى...

لا يستطيع أن يكتب، جسد ممدد في الحديقة لا يحس الخوف ولا البرد ولا الظلم الواقع عليه..

لم يكن الكتاب في مكانه من المكتبة.. ولا في موقعه من ذاكرة التاريخ.. وليس لديه الرغبة في أن تمتد إليه يد الآخرين لتعتني به.. كان يتابع توالي أيام الأسبوع على النتيجة الصغيرة الموجودة في محفظته التي كانت تحتوي على أشياء تشكِّل له قيمة كبيرة ...

صورة فوتوغرافية لزوجته التي طالما اشتاق إليها وهو يقف على خط النار، يعلِّم بالقلم الجاف الأسود على كل يوم يمر وكل سنة تسقط ويحتفظ بتلك السنوات المعلَّم عليها بالأسود..

كان يعرف أن هناك من يتابع سقوط الأيام من سجل حياته ويخاف لحظة خروج الأوراق من المحفظة التي أحيانًا كانت تمتد إليها يد الصغار من أحفاده وهو لا يقدر أن ينهرهم لأنه ممدَّد في الحديقه يتدحرج كل شيء في حياته خارجًا..

نظر إلى الحديقة وهو لا يرى شيئًا.. زحفت الحشرات نحو جسده تنهش سجله المملوء بالأفكار.. إنه يتوقف للحظة عن الكتابة والتدوين..

لماذا تريد أن تستمر فى البناء رغم أنه لا يوجد لديك أى مقومات؟

يتدحرج زهر الطاولة من داخل الطاولة حتى إنه قفز إلى الأرض يبحث عن النقط السوداء المحفورة داخل ذاكرته.

المجهول.. صوت مجهول على الهاتف يقترب من باب الحديقة يلقى نظرة أخيرة على جسده الممدد..



الحياة فى الثلاثين

.. تك.تك. تك. تك.

دقات الساعة تصر على الدق الدائم داخل الرأس.. تذكِّرك دائمًا بحركة الليل والنهار وانقضاء العمر..

لا يوجد هناك عد تنازلى.. لكن هناك عدًا تصاعديًا حيث مكان الأفكار والروح وصور الأصدقاء وما قرأته من كتب..

بعد الثلاثين كل المحيط الخارجى يكذب عليك..

ازيك يا حاج؟ هكذا قالها له أحد المساعدين الذين عملوا معه عشرين عامًا على الأقل.. بدلاً.. الأستاذ شرف.. فلنبدأ العمل والنشاط..

لكن أزىّ صحتك يا حاج؟ ماذا تعنى صحتى وشكلى الخارجى بالنسبة إلىَّ؟

كان يعرف أنه الآن أكثر نضجًا ويستطيع أن ينقد نفسه وما صنعت يداه على مَدْى خمسة وثلاثين عامًا قضاها يعمل فى هذا الوطن الماسبيرو.. قبل أن يكون الإعلام هو الوطن.

من صاحب فكرة التغيير ؟

ربما ... ولماذا ربما؟ أنت تستمتع بالتدخين أكثر من ذى قبل.

... العمل يساعدك على النشاط الدائم ويبعد عنك المرض.

لا تلقِ بالاً لصورتك فى المرآة لكى لا تتحول إلى شخص فوتغرافى..

الأفكار والروح والمونولوج الداخلى يظل دائمًا فى الثلاثين، حتى أفكارك عن مستقبلك.. ما زال أمامك الكثير...

أمامك الكثير عندما تكون فى الخامسة والستين وأنت لم تصل إلى الثلاثين بعد...

لا تخَفْ، أمامك كمين.. سيارات كثيرة تقف على جنب عندما يرمقك عسكرى المرور أو الضابط.. يأذن لك بالمرور الفورى .

إذن أنت غير ضارٍّ.. تُرَى هل أنت أيضًا غير نافع؟

راودته هذه الأسئلة فى الثالثة من صباح اليوم التالى.

تك.. تك.. تك.. ما زال الزمن يمر عليك ..

ينتظر الآخرون لحظة سقوطك..

الدوام لله.... والوطن..

٢٠ مارس ٢٠١٠

مذكرات دجاجة

رقدت الدجاجة على البيض فأحسَّت بالراحة والدفء والأمومة..

يؤذِّن الديك فتشرق الشمس كل صباح وتكبر الأجنة داخل البيض.. بعد ثلاثة أسابيع تحس الفرخة بنقر الصغار تحتها.. إنها تقأقئ سعيدة بهم.. يخرجون.. يصوصوون فرحين بالحياة.. سيتلوَّن ريشهم بأشعَّة الشمس..

على سطح عشة الفراخ التى تحتوى على باب صغير نصفه خشب ونصفه سلك وشباك من السلك للهواء وقف الديك يحذر صغاره من أى خطر طائر على شكل حدأة.

الكتاكيت الآن.. يتامى يخرجون إلى الحياة بعد يوم واحد دون أم ترعاهم أو ديك يصيح لهم فيلعبون ويلتقطون الحبوب. الأرز والذرة والقمح.. إنهم الآن يعلفون ويتوحشون بلون واحد كمفارش بيضاء لأسرَّة بالمستشفيات أين الديك الشركسى والفرخة الرزى وأبو رقبان... ؟

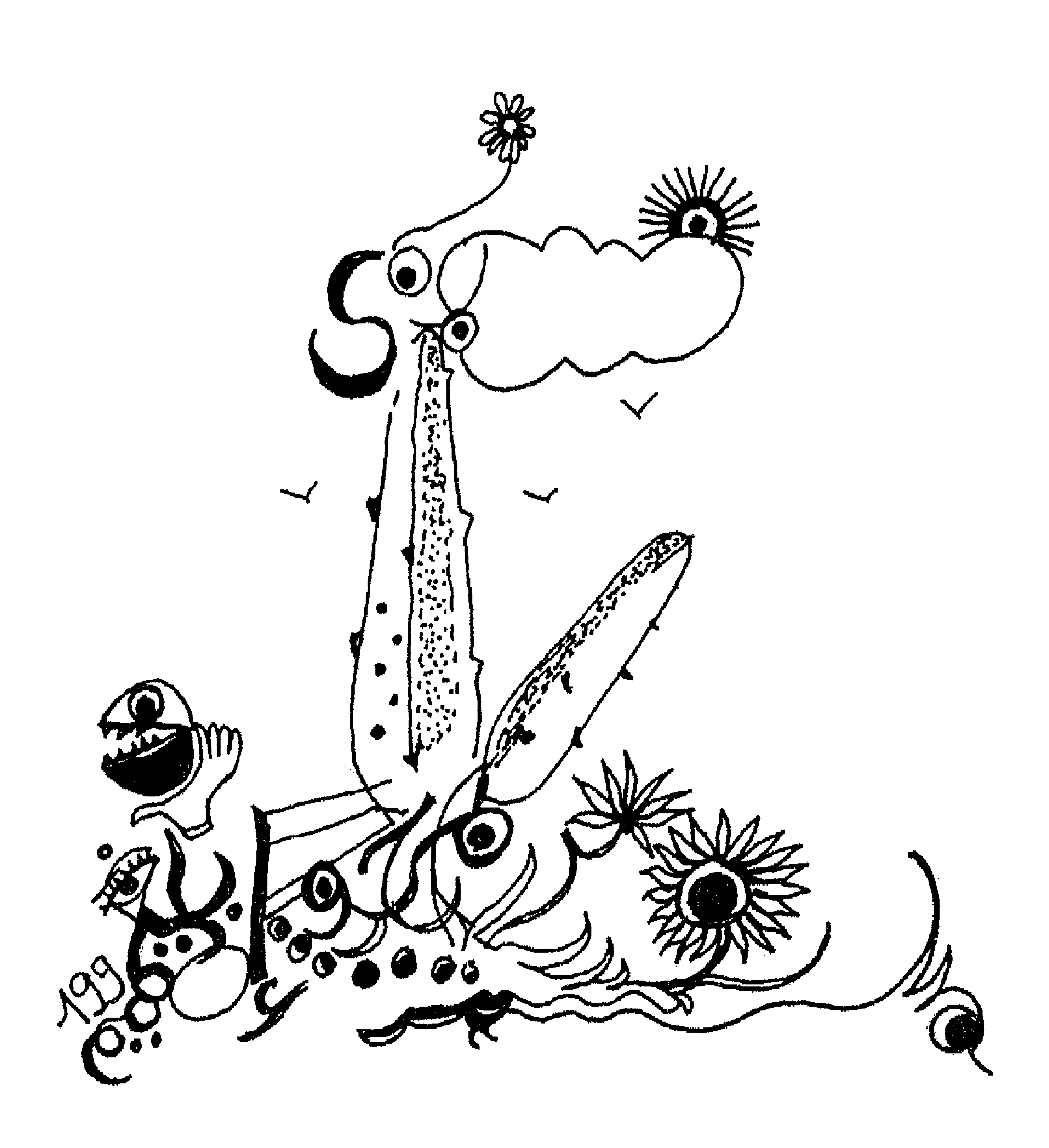
قالت الفرخة لنفسها: إننى لم أعد كذلك.

حاولت أت تبحث عن أى بصيص من الضوء. لم تجد سوى الحائط الأسمنتى .

كانت تحلم بالعشة والبيض والصغار.. لقد أخذوا منها كل شيء.

ظلت عيناها مثبتتين فى لمبة السقف..

حتى حياتى القصيرة لم تعُدْ كذلك.. هكذا قالت لنفسها للمرة الأخيرة.. عطست.. ثم تجمد المشهد.


199

الصبَّار وحديقة المستقبل (بكاء الجمل)

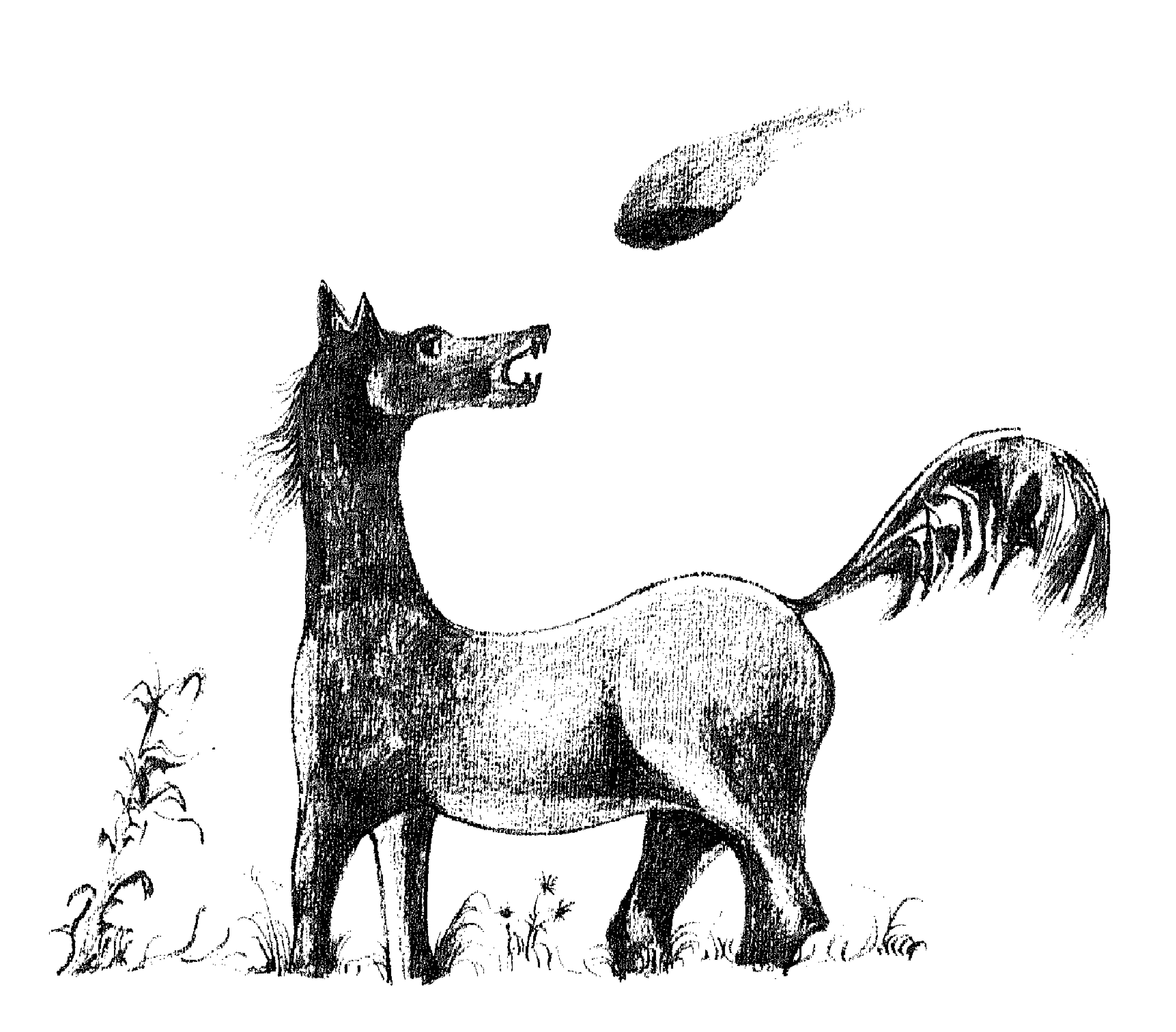
في الصحراء الغربية البعيدة قامت عاصفة خماسينية أطاحت بالقافلة.. تناثر البشر والجمال والنساء والأطفال كذرات الرمال السوداء.. بقع في الهواء.. خمدت العاصفة بعد ثلاثة أيام.. لم يتبقَّ إلا جمل واحد يلحس وجه صاحبه.. ربما كان حيّا.. فك العمامة عن عينيه.. بص الرجل في وجه الجمل.. احتضنه الجمل: ورفعه على ظهره... قال له الجمل: هيا نكمل المسير.. رد الأعرابي: إلى أين...؟ قال له الجمل : لننتظر حتى تظهر نجوم الليل.. فأنت تعرف.. قاطعه الأعرابي : بما أنك أنقذت حياتي أعطني فرصة أرد لك الجميل وابرك بي بجوار هذا الصبار.. حتى يحل الليل... برك الجمل بصاحبه.. وأسرَّ في أذنه: هل ستتحمل الجوع والعطش؟

كان الأعرابي في حالة من الإعياء والتعب والعطش.... رفع عينيه ناحية الجمل... نظر الجمل في عيني الأعرابي طويلاً.. كانت صورة الجمل تهتز كأنها على صفحة في الماء... بكى الجمل في فم الأعرابي طويلاً... حتى ارتوى... مالت الشمس إلى الغروب... نام الأعرابي ملء جفونه... سمع الجمل صراخ الذئب... حاول أن يوقظ الأعرابي... دون جدوى. اقترب عواء الذئب خلفه كورال من الذئاب... سقطت الشمس في ثوانٍ خلف الأفق ليحل الظلام... حاول الجمل مرة أخرى.. صرخ في صاحبه: لقد زينت النجوم السماء كمصابيح تهدينا إلى الطريق... دون رد.

كان بعض النجوم يسير على الأرض بضوء ناري ثنائي.. امتلأت الأرض بنجوم حمراء تتحرك.

أشرقت الشمس على زهرة الصبار التي نبتت فيها ورود حمراء بجوار عظام الضحايا (ضحايا الصبار الإسرائيلي).

تمت في ٢٠١٠/٣/١٧



صوت الطباشير

تصاعدت أصوات تلاميذ المدرسة الابتدائية وتعالى صياحهم، أدخلوا شنطهم وأدواتهم المدرسية فى الأدراج الخشبية.... توالت أصوات إغلاق الأدراج... فتح المدرس باب الفصل ووقف لبرهة.. وقفنا جميعاً فى الفصل فترة صمت جعلتنا نسمع أنفاس المدرس قصير القامة... عالى الهمّة والهامة.. كان صدره أشبه بكور الحداد، يرفع الطاقة الحرارية إلى رأسه.

دخل إلى مكتبه الذى ينتصف مقدمة الفصل... تقدم فى ثلاث خطوات فاصلة كدقات المسرح قبل بدء العرض... ورفع الستار.

قال فى صوت حادٍّ ومنخفض: إرسال.. جلوس.. والإرسال هنا أن ترسل يدك من أعلى حيث كنت تقف تعظيم سلام... أو على الأقل هذا التفسير الذى جعلنا ننزل أيدينا على الفور فى حركة جماعية.

اتجه ناحية السبورة بعد أن وضع أدواته على مكتبه حيث تستطيع أن تلمح خرزانة قصيرة داخل الجرنال الذى يحتوى على أدوات المدرس: كراسة التحضير، والكتاب المدرسى، وجريدة الشعب ذات عشرة المليمات...

اتجه ناحية السبورة بخطوات ثابتة كأنه يمشى على إيقاع مارش عسكرى، أخذ إصبع الطباشير من الصندوق المجاور للسبورة وباليد الأخرى أمسك البشاورة ذات سترة الجوخ الأخضر، بدأ يكتب التاريخ الهجرى من أعلى السبورة من الناحية اليمنى والتاريخ الميلادى من الناحية اليسرى بخط النسخ، وكانت "بسم الله الرحمن الرحيم" ثابتة فى المنتصف بالخط الديوانى، بعد ذلك كتب موضوع النصوص بخط الرقعة وكان عن الشعر العربى.

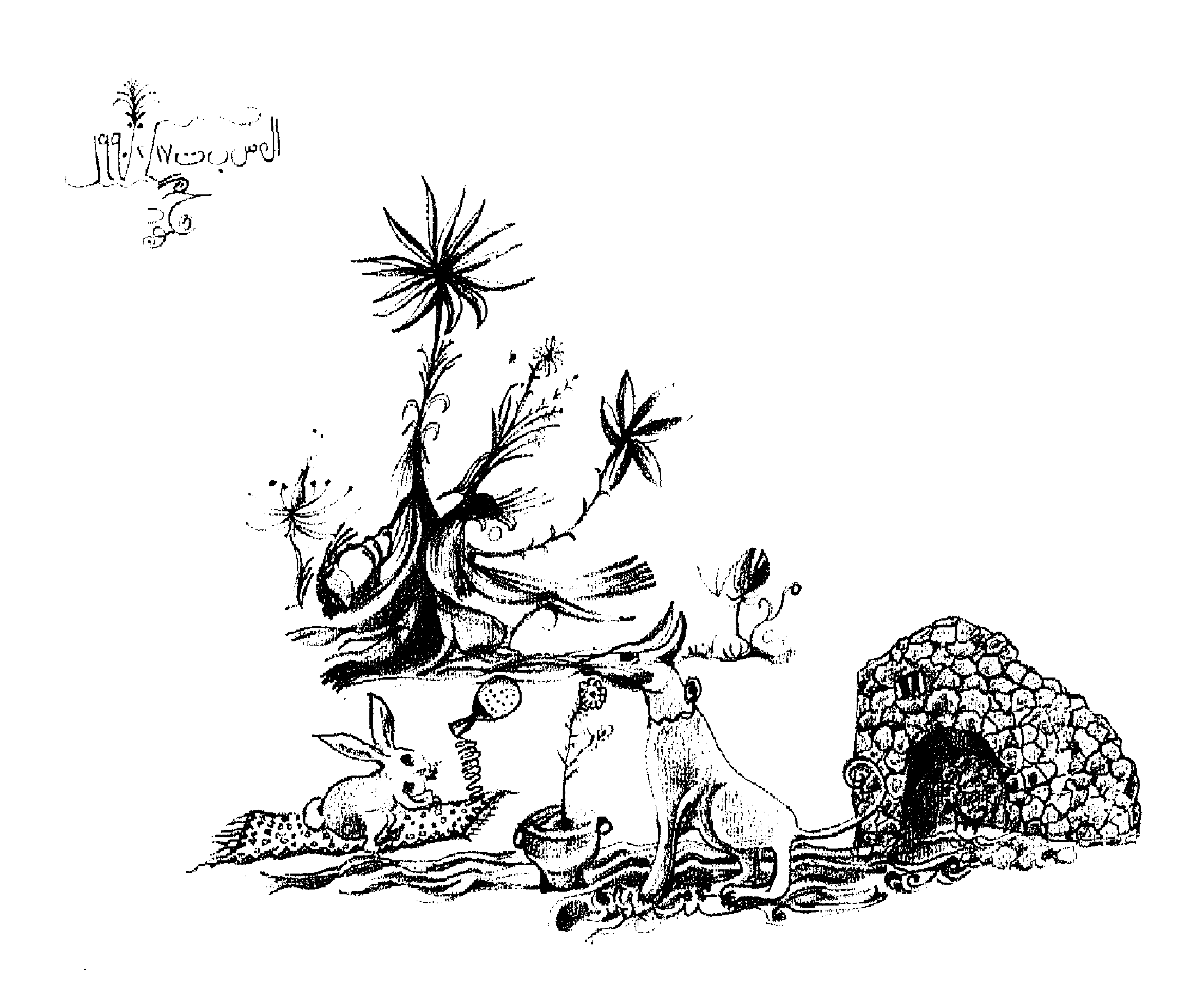
انتهى من كتابة البيانات التى حُفرت فى عقولنا مرسومة كأثر من آثار النحت الغائرة لا ينمحى أبداً، ألقى ما بقى من إصبع الطباشير فى الصندوق مُحدِثًا صوتًا قاطعًا كأنه يعلن عن بداية الفصل الأول من الدرس. والفاصل بين الاستعداد وبدء معركة التعلم...

قرأ المعلم عنوان القصيدة واسم الشاعر بلغة عربية فصحى منسجمة وموسيقية وموقَّعة تهز الأفئدة، كان صوته يعلو وينخفض مع معانى الكلمات كأنه يوصل المعنى فى أثناء القراءة، كان يؤدى أداءً مسرحيًّا باهراً لنا نحن التلاميذ، كانت كتب النصوص مفتوحة أمامنا وكنا نتابعه متابعة حذرة فى انتظار لحظة أن نقوم ونقرأ ونؤدى كما يفعل، كان يقرأ وجوهنا ومدى استقبالنا كلماته كأنه مؤلفها.

خمسون دقيقة من الحركة الدائبة لهذا المعلم العبقرى وسط الفصل كأنها مسرحية هو فيها البطل ونحن الجمهور والمؤلف يتغير كل حصة، فاصل خمس دقائق بعد الجرس ليتغير المنظر ويأتى أستاذ اللغة العربية عبد الحميد شركس كل يوم يتمثل شاعراً جديداً أو راوياً لأديب، كان هو جرير والفردق والمتنبى وطه حسين ونجيب محفوظ...

انطلق الجرس معلنًا نهاية المشهد الأول أو الدرس الأول، مر الوقت سريعًا... شهيق دون زفير.. عندنا خمس دقائق من الزفير...

تناول أوراقه من فوق المكتب، الخرزانة تطل علينا وهى تستأذننا بالخروج... وقفنا جميعًا، أدينا التحية ليصفق الجمهور وتنتهى الحصة الأولى، ويبقى صوته فى أذنى وخطه الجميل فى ذاكرتى لأحكيه لكم.



كلب وحيد في ميدان الرماية

السبت ١٧ أبريل ٢٠١٠

صمت الكلب عن النباح في سكون عمارات الضباط المهجورة بعد حرب ١٩٧٣ واتفاقية كامب ديفيد في حي الرماية. سأل نفسه إن كان في حاجة إلى النباح أم لا، حاول مرة ومرة أن يسمع صوت نباحه لكنه لم يفلح، كانت العمارات خاوية تمامًا من الضباط القضاة رغم أنها جيدة التشطيب، حتى حراس المكان من الجنود كانوا يبتعدون عنها لأنها لم تعد في حاجة إلى الحراسة ربما لأن أرواح من فُقدوا في الحرب ودفعوا الثمن كانت تسكن المكان، وربما أحس الكلب أيضًا أن صوته لا يصدر في هذا المكان المشحون بالطاقة الروحية للشهداء، لاحظ الكلب ظل خياله عبر الضوء القادم من الصوت والضوء لهرم خوفو حيث يحتسي السائحون زجاجات البيرة كأنهم مدعوون إلى حفل تأبين حضارة عريقة لم يعد لغيرهم الحق في الاحتفال باختفائها.. هل أهز ذيلي لعل ظلِّي يسعد بهذه الحركة التي تبدد صمت المكان؟ هكذا سأل الكلب نفسه، ظل يبحث لنفسه عن مكان مرتفع يتلقى منه الضوء القادم عبر المسافات بين العمائر المهجورة... صعد بعض الدرجات.. قال لنفسه: سأقف هنا على هذه المنصة. جلس جلسته المعهودة التي تذكرك بمنحوتات الكلاب الموجودة في مدخل كلية الفنون الجميلة.. أنا لست تمثالاً.. هكذا هز الكلب ذيله بانفعال شديد باعثًا الحياة في المشهد القريب من لوحات ديكيركو الميتافيزيقية.. أحس بالسعادة والنشاط يملآن حياته وفكر أن يقدم كلمته الأخيرة في هذا الجو الموحش. وعلى منصه سلم إحدى العمارات المهجورة للضباط القضاة بعد الحرب وبعد السلم.. لمح ظل ذيله منكسراً على دَرَج المنصَّة التي اختارها، سأل نفسه من جديد: لماذا يهز الكلب ذيله حتى عندما اختفى البشر من الساحة، واختفى الضباط من ميدان الرماية، ومساكن الضباط المتقاعدين في سن

الشباب بقّعها الماء المتسرب من المواسير الخربة...؟ بدأ هواء منتصف الليل يتسلل إلى رئتيه، ويحرك أحد الشبابيك التى تحدث صريرًا يهز أرواح الشهداء.. كأن الشباك شبه المكسور والمدلى على جانب الحائط يصدر صوتًا ينبه الكلب أنه ليس الوحيد فى المشهد.. انطفأ الضوء القادم عبر هرم خوفو بعد انتهاء تمثيلية الصوت والضوء، هبَّت نسمة قوية قذفت بالشباك الذى سقط على رأس الكلب..

صرخ صرخته الأخيرة وعاد الصمت إلى الميدان المهجور.

انتهت فى ٢٠١٠/٥/٨

المراجعة اللغوية : محمود عبد الرازق جمعة



محمود إبراهيم

- ٩/١٢/١٩٤٥- طنطا- غربية.
- خريج كلية الفنون الجميلة- قسم التصوير ١٩٦٩.
- دراسة الإخراج وفن الخدع السينمائية فى ألمانيا الغربية ١٩٨١ وفرنسا ١٩٨٥.
- قدم ١٠ فيلمًا تسجيليًا عن الحركة التشكيلية فى القرن العشرين تحت اسم "فنانين من مصر". أهمها:
- المجذوب الأخضر عن الفنان عبد الهادى الجزار.
- بيوت مصرية عن عمارة حسن فتحى.
- الضوء المسموع عن الفنان فاروق حسنى.
- مختار مصر ٢٠٠٨ عن نحات مصر العظيم محمود مختار.

أهم المعارض الخاصة

- قاعة إخناتون ١٩٧٢.
- قاعة محمد راسم بالجزائر (العاصمة) ١٩٧٥.
- معارض بمجمع الفنون بالزمالك أعوام ١٩٧٩و ١٩٨٤و ٢٠٠٠.
- الاشتراك فى جميع المعارض المحلية والدولية على مدى أربعين عامًا.
- ٢١ جائزة محلية ودولية فى مجال الإخراج وتصميم العرائس.
- الجائزة الذهبية عن فيلم " صدى النهر".
- ثلاث جوائز دولية عن فيلم " طيور صغيرة".
- العديد من المقالات النقدية بمجلة " الثقافة الجديدة".
- تدريس الفن بجامعة الجزائر من ١٩٧٦ وحتى ١٩٧٨.

في ذكرى الحاضر
بلحه ابن النّخله
عيده مات يا قمر
الجاموسه ست الدّار
الفارس والطّفاشه
أخرج برّه go out
يوم مات أمي أحببت الحكايات
احترقت الشّجره قبل بدء التصوير
مات محمد قبل أن يزرع شجره
حوار حول العبد في الدير البحري
الحمار الفصيح
أحزان ذبابه
حديث الأشجار
الصّدمه
الدّرس الأول
الحمار والأرنب وحفل الملوخيه

وحكايات أخرى



